

# الغيب في القرآن

أ.د. زينب عبد العزيز

2018

”الأرواح جنود مجندة،  
فما تعارف منها ائتلف،  
وما تنافر منها اختلف”

سيدنا محمد  
عليه الصلاة والسلام  
(حديث صحيح)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ لَوْ كَانَ النَّجْمُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ بَيْتِي لَتَفِدَ النَّجْمُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ بَيْتِي وَلَوْ جِئْنَا

بِمِثْلِهِ مَدْرًا...

(الكهف 109)

وَلَوْ أُنْمِئَتْ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالنَّجْمُ يَمْدُةٌ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَمْخِرٍ مَا نَفِدَتْ

كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

(لقمان 27)

## المقدمة

يمثل هذا البحث دعوة موضوعية لإعادة النظر في موقفنا عامة من قضايا الغيب، وخاصة من مسألة "الروح" وإعادة التجسد في حيوات أخرى متتالية. ويرجع الخلط فيها الى القرون القريبة الماضية، والربط بين هذا المعطى العلمي/الإلهي الوارد في نص القرآن، وبين فلسفات بشرية صرف كالهندوسية والزرادشتية وغيرها، القائلين بأن الإنسان بعد الوفاة ووفقا لتصرفاته في الحياة الدنيا يعاد تجسد روحه في بقرة أو خنزير وما الى ذلك كنوع من أنواع العقاب.

والسؤال البسيط الذي أطرحه في هذه الجزئية تحديدا هو: كيف نقبل على أنفسنا الخلط بين فلسفات أتى بها زيد من الناس في الهند أو السند، حتى وإن تم تأليفهم أثناء حياتهم أو بعد رحيلهم، وبين نص القرآن الثابت تنزيله من عند الله، خالق السماوات والأرض وكل ما بها أو عليها؟ كيف نقبل على أنفسنا أن نقارن فلسفات وضعها بشر، بكلام الله سبحانه وتعالى؟ ثم نتخذ قرارات بناء على هذا الخلط !

لذلك أتناول هذا الموضوع في محاولة لدفع القارئ والباحث الى تأمل مجال أكرمنا به المولى عز وجل من أكثر من أربعة عشر قرنا، وقد تأمله قلة من علماء المسلمين القدامى، ثم خبت شعلة البحث والحماس بسبب لبس أدى الى خلاف في تفسير آية "الروح" الواردة في سورة "الإسراء" (آية 85): {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۗ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}. أو لعل الحرص قد بدا أفضل من أي احتمال آخر، بدلا من الرجوع الى سبب أو أسباب هذا التوقف الذي امتد قرونا وتزايد خاصة في أواخر القرن العشرين وتواصل حتى أيامنا هذه. ومن الغريب أو اللافت للنظر أن يبدأ الغرب الالتفات لمجال الروح في منتصف القرن الثامن عشر تقريبا. وما هي إلا عدة عقود من البحث العلمي المتواصل في مختلف مجالات الغيب كالجلاء البصري والسمعي والطرح الروحي وتوارد الخواطر وغيرها، حتى توصل إلى نتائج دفعته الى جعل المجال الغيبي بكل أو بمختلف تشعباته أحد التخصصات العلمية الجامعية، وأنشأ لها أقسام متخصصة في العديد من الجامعات.

وتوضح لنا كتب التاريخ الإسلامي أن الواقعة التي أدت إلى نزول آية "الروح" كانت بسبب سؤال اليهود لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، سواء أكانت لإحراجه أو للتأكد من نبوته. وأتاه الوحي الإلهي بهذا الرد الواضح: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}. ولو تأملنا هذه الآية في نصها وتشكيلها لوجدنا أنها جملة واحدة متصلة دون أية علامات وقف. فيبدو الرد واضحا مرتبطا بلا أي لبس: الروح من أمر ربي ومعلوماتكم في هذا المجال قليلة. أي أنه رد واضح صريح في كلا المجالين: الروح والعلم، وليس به أية إشارة إلى حرمة تناولها بالبحث.

وليس من المنطق اتخاذ هذه المعلومة التاريخية المحددة كسبب أو كدليل لعدم الدراسة ومحاولة الفهم. فالمعروف تراثيا وعلميا أن القرآن الكريم قد نزل منجما، أجزاء متفرقة وفقا لحاجة الرسالة وتوضيحها لكل موقف من المواقف على حدة، طوال السنوات الثلاث وعشرين، أي طوال مدة الوحي. وقد تم تدوينه أولا بأول، والمعروف والثابت أيضا أن تجميعه لم يتم بترتيب النزول. والله حكمته العليا في ذلك، فلو تم تسجيل وتثبيت الآيات وفقا للأحداث ووقوعها لكان الآن بين أيدينا كتابا من كتب التاريخ أو سجلا للأحداث التاريخية كما وقعت ليس إلا.

ولحكمة إلهية لا حد لها تم ترتيب الأحداث وآياتها بشكلها الحالي، بناء على وحي أوحى إلى سيدنا محمد، فيقوم بتوجيه الكتبة أين أو في أي جزء يضعونها. أي أن الترتيب أو الشكل النهائي للمصحف الذي بين أيدينا كان بتوجيه من الله ليحوّل الكتاب من سجل لأحداث تاريخية حياتية إلى كتاب متفرد في الوجود، به من العلوم والتوجيهات الصالحة لكل زمان ومكان ما يسمح بإقامة حضارة إنسانية عالمية لا مثيل لها.

وتتبع الكلمة الواحدة في نص القرآن، أو الموضوع الواحد، وفهم الإطار الذي نزلت فيه في مختلف السور يعطينا رؤية متكاملة أكثر وضوحا من لو اكتفينا بقراءة نفس الكلمة أو نفس مجموعة الآيات في أماكنها فحسب. ولدينا مثال واضح في موضوع تعدد الزوجات. فمن ناحية هناك آية تسمح ب {مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً} (النساء 3). وبما ان العدل هو أساس الحكم وخاصة حكم الله سبحانه وتعالى، فيكون الزواج بواحدة فقط هو ما يجب اتباعه. إلا ان الله العالم بمن خلق وكيف ان الإغراءات او الظروف قد تدفع إلى الوقوع في تعدد الزوجات، فنطالع في الآية 129 من نفس سورة "النساء" استكمالا وشرحا لما أتى من تشريع واضح يفسر سبب هذا التحديد بواحدة فقط: {وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ}. فكيف لإنسان أن يتعامل بنفس العدل في كافة المجالات الحياتية بين زوجاته وخاصة في المجال العاطفي؟ لذلك وضع الله العدل حدا لعدم الوقوع في الخطأ أو التفرقة والتمييز بين الزوجات في المعاملة.

وذلك هو ما حاولت اتباعه مع الكلمات التي بدت لها علاقة بالغييب، بمعنى كل ما هو مغيب عنا، لأجعل من كل مجموعة متقاربة موضوعا في فصل واحد. لعل ذلك يفيدنا في فهم معالم أخرى من القرآن.

ولا أزعج على الإطلاق أنني وفيت الموضوع حقه، فكل كلمة من الكلمات التي تناولتها جديرة ببحث متكامل قائم بذاته، لو تتبعناها فعلا في كل نص القرآن.

وليس الهدف من هذا البحث سوى الإشارة الى أهمية المجال الغيبي/الروحي، الذي أهملناه طويلا، وضرورة إعادة النظر والتوسع في دراسته وفهمه، لندرك ملامح جديدة في القرآن وفي العلوم التي يحثنا الله في العديد من الآيات على التعلم وعلى تأمل الخلق، في الطبيعة من حولنا وفي أنفسنا، فلا أبالغ أبداً ان قلت: ان القرآن بكلمة قائم فعلا على مجال الغيب بكل أبعاده.

أكتوبر 2018

# الفصل الأول

. نبذة عن الغيب

. الغيب

. عالم الغيب

. الوحي

. الرجوع إلى الله

. البعث

## نبذة عن الغيب

أثبت العلم الحديث أن كل شيء في الدنيا عبارة عن ذبذبات، إلا أن عينانا لا يمكننا أن نلتقط كل هذا الكم المهور الموجود منها. فنحن كآدميين لا نرى الأشعة فوق البنفسجية رغم أنها موجودة بالفعل، كما لا نرى الأشعة تحت الحمراء، وهي موجودة أيضا بل ونستخدمها لنتجول بين محطات التلفزيون. كما أن أذننا لا تسمع الأصوات تحت حيز الصوت الأدمي الذي يبدأ من عشرين هيرتز، ولا ما هو فوق حيز الصوت الأدمي ويصل الى عشرين ألف هيرتز، ويسمع الكلاب مثلا أعلى من ذلك وبالتالي فهم يسمعون درجات من الصوت أعلى منا. أي أن هناك مساحة ضخمة في الكون لا نراها ولا نسمعها ولا نشعر بوجودها بل ولا نلاحظها بأي وسيلة من وسائلنا رغم أنها موجودة فعلا.

وذلك الكون يطلق عليه إجمالا "العالم الآخر"، حيث يعيش فيه مليارات الكائنات والمخلوقات. ويقول العلماء أن الإنسان غير المرئي موجود بالفعل، غير أن جسده مصنوع من مادة أثيرية أكثر رهاقة من أجسادنا، وأن كل الكواكب مسكونة، لكن أجهزتنا ووسائلنا المحدودة لا يمكننا تصوير هؤلاء السكان، مثلها مثل أعيننا التي لا تستطيع رؤية الأشعة فوق البنفسجية أو تحت الحمراء.

كما يؤكد العلماء أن هناك مدنا على الأرض غير مرئية، وأنها ترتفع أحيانا بضعة مئات من الأمتار فوق سطح الأرض. كما توجد كواكب لا يمكننا رؤيتها، فالأرض مثلا لها ثلاثة أقمار لا نرى منها سوى قمرنا واحدا. وعدم إمكانية رؤيتنا هذه الكواكب والظواهر فذلك لا يمنع من أنها موجودة فعلا. كما توجد عوالم تزداد مادتها الأثيرية، وقطاعات بأثرها في الكون أكثر بعدا عن مادة أرضنا الشديدة الكثافة. ومن نعتقد أنهم موتى هم أحياء عند ربهم يُرزقون، بل وفي انتظار وصولنا، كما يقول رب العالمين، وأنهم {فَرَجِينِ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (آل عمران 170).

وقد يدهشنا أن القرآن الكريم يزخر بما لا يمكن أن نتصوره من الإشارات التي تدل على ذلك المجال المغيب عنا لعدم معرفتنا به أو لاختلاف مواد تكويننا. فلقد ألف العديد منا القراءة التقليدية العابرة لنص القرآن، وكأنها مجرد تأدية واجب، أو للحفظ صما، وليس تنفيذا للعديد من توجيهات وأوامر ربنا سبحانه وتعالى. فما أكثر الآيات التي تحثنا على أن ننظر ونتدبر هذه الآيات القرآنية أو المعجزات التي في أنفسنا وفي الطبيعة من



حولنا أو في ذلك الكون الشاسع.. ولعله عز وجل يطمسها عن مداركنا حتى نتعلم تدبير الكلمات وتأمل الإشارات لإدراك معانيها ورؤية ما تحمله أو ما تكشف عنه من عوالم متداخلة.

ولم أجد تمهيدا بسيطا لهذا البحث أطرف من ان نتصور حوارا بين جنينين، مجرد تصور توأمان في بطن أمهما، يتحاوران حول المجال الغيبي والواقع المحدود الذي يعيشان بداخله.. حوار قرأته منذ سنوات وانطبع مضمونه في ذهني دهشة وإعجابا بالفكرة. وهو للأديب الإسباني بابلو مولينيرو في كتابه المعنون "مورفوجينيا" الصادر سنة 1980، والمقال الأصلي يقع في عشر صفحات. وما أكثر الشبه بين حوارهما وبين كل الذين لا يزالوا مصرّين على عدم فهم أو استيعاب معني "عالم الغيب" إذا ما ناقشهما رأى مخالف لهم. وسأشير لهما بمجرد رقمي 1 و2 :

1 - ... وأنت، هل تؤمن بالحياة بعد الولادة؟!!

2 - بالطبع، إن الحياة بعد الولادة موجودة فعلا. نحن هنا في ذلك المجال المحدود أو ذلك العالم الضيق لننمو ونزداد قوة لنستعد لما ينتظرنا بعد الميلاد وكل ما سنقوم به من مهام ونتعلمه من دروس وتجارب..

1 - أوفّ لك! كل ذلك هراء لا معنى له.. لا يوجد أي شيء بعد الولادة. كيف يمكن أن تكون هناك حياة خارج البطن؟! خارج دنيتنا المحدودة هذه، التي نعيش فيها ونعرف كل أبعادها؟

2 - هناك الكثير من الروايات حول الجانب الآخر.. يقولون إن هناك كثير من النور، كثير من السعادة والانفعالات المفرحة، آلاف الأشياء علينا أن نمارسها أو نعيش تجربتها.. مثلا يبدو أن هناك سنأكل بقمنا! بل سنتفنن في العديد من أنواع الطعام والحلوى و..

1 - هراء.. ان ذلك كلام لا معنى له على الإطلاق! لدينا حبلنا السُرّي وهو الذي يغذي.. الطعام لا يتم أبدا عن طريق الفم. وبالطبع، لم يحدث أن عاد إلى بطن أمه أي واحد من أولئك الذين ذهبوا الى تلك الحياة الأخرى بعد الوضع.. ستري أن كل تلك القصص والروايات سذاجة محضة. إن الحياة تنتهي ببساطة بعد عملية الوضع، علينا أن نتقبلها بهذا الشكل الذي نحن عليه، فقط لا غير.

2 - اسمح لي أن أفكر بطريقة أخرى: من المؤكد أنني لا أعرف ما ستكون عليه الحياة بعد الوضع، ولا يمكنني أن اثبت لك أي شيء. لكنه يروق لي أن أتصور، في تلك الحياة القادمة، أننا سنرى أننا ستعتني بنا.. وسننعم بحبها.. و..

1 - أمنا؟! أتعني قول إنك تؤمن فيما يسمونه "الأم"؟! وأين هي إذن؟!!

2 - في كل مكان.. انها في كل مكان من حولنا.. إننا جزء منها ونحن نعيش بفضلها.. برعايتها.. وبدونها لما كنا هنا، في هذا الظلام وهذه الوحدة القاسية.

1 - هذا عبث! انني لم أر أماً في حياتي، ومن المؤكد أنه لا وجود لها..

2 - لا أتفق مع وجهة نظرك.. لأنه أحياناً، حينما يصبح كل شيء شديد الهدوء من حولنا يمكننا الاستماع الى غنائها.. أو نشعر أحياناً أنها تربت برفق أو تتحسس عالمنا بحنين.. ولا تضحك مني فأحياناً يهياً لي أنني اسمع أنيها.. أشعر وكأن حياتنا الحقيقية ستبدأ بعد الوضع..

ولو قمنا بتطبيق هذا الحوار بين الدائر بين الجنينين وطبقناه على أنفسنا، بمعنى: على من يقبلون فكرة وجود عالم الروح وكل مجالاته وإمكانياته، ومن يرفضونه ويتمسكون بحدود الحياة الدنيا، لأدركنا الفارق بين الفريقين بوضوح.

## الغيب

تعني كلمة الغيب ذلك المجال اليقيني الوجود والمغيب عنا ولا ندركه بمعلوماتنا وإمكانياتنا المحدودة. وهو المجال الذي سيتوجه اليه كافة البشر بعد الموت، أو إن شئنا الدقة: كل كائن حي، وإن كان الله لا يطلعنا إلا على ما يخصنا إجمالاً. لذلك علينا أن نتقي يوم رجوعنا ونعمل حسابه بكل ما أوتينا من قدرة وعزم. فالتحذير واضح لا لبس فيه: {وَإِنَّمَا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (البقرة 281). فإله سبحانه وتعالى لم يخلقنا عبثاً، لأن مجيئنا في الأرض كان بأمر تكليف وقبلنا تحمل الأمانة التي حملها لنا، وهي: إعمار الأرض والتقدم والرقي والتطور كآدميين، وتأمل الخلق والخلقة من حولنا. وبالتالي الاستعداد ليوم الحساب، فيوم الحساب لا ريب فيه.

ويوضح لنا القرآن الكريم، الذي ترد فيه كلمة الغيب ثمان وأربعين مرة بنفس الصيغة، ومرة واحدة منسوبة إلى الله بصيغة: "غَيْبِهِ"، وأربع مرات بصيغة الجمع: "الغيوب"، وكل هذه التصريفات المختلفة مقصود بها الحياة التي تتواصل بعد الحياة الدنيا. وكل ما يتم فيها من محاسبة بميزان الحق، والتي يليها الثواب أو العقاب.

وعبارة "غيبه" المنسوبة الى الله عز وجل تعني ملكيته لعالم الغيب بكل ما فيه، كما تعني مجازاً أن له غيبه الخاص به سبحانه غير كل ما أكرمنا به من معلومات متعلقة بقدرته وصفاته.

والغيب إجمالاً بكل ما يدور فيه مفروض علينا الإيمان به وبوجوده الفعلي إيماناً صادقاً. بل المطلوب فعلاً وتحديدًا هو إيمان اليقين. إذ تبدأ سورة "البقرة" بوضوح لا لبس فيه: {الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)}.

أي إن أول ما هو مطلوب من الإنسان، من ذلك المؤمن النقي المتمسك بتعاليم الله هو: الإيمان بالغيب، إقامة الصلاة، الإنفاق مما رزقه الله سبحانه وتعالى، وخاصة: الإيمان بالغيب الي درجة اليقين. أي ان الإيمان بالغيب هو أهم هذه الفروض الثلاثة لأن الحياة ستتواصل فيه بكل مجالاتها. ومعنى كلمة "الإنفاق" هنا وفي كثير من الآيات لا يقتصر على النقود فحسب، كما قد يتخيل البعض أو أنها تعني الزكاة فحسب، وإنما الإنفاق من كل ما يحصله الإنسان من علم ومعرفة وتجارب تفيد أو تفيد غيره من البشر. لذلك نطالع في سورة "الحديد" (آية 7): {آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}؛ وفي سورة "إبراهيم" (31) {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ}؛ وكذلك: {أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ} (البقرة 267). ومن الواضح ان "أنفقوا" و "ما كسبتم" في هذه الآيات لا تقتصر على المال فحسب وإنما على كل ما حصله الإنسان من علم ورقي وتقدم بل وتجارب، إضافة الى كل ما يخرجنا لنا المولى من خيرات الأرض.

وكلها نَعَمْ ينعم بها الله على عباده. لذلك يقول: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}، وإلا لما طالبنا الله أن نتقي الشح ولما لعن الذين يكتمون العلم أو ما أتاهم من فضله. بل نطالع في سورة "آل عمران" {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} (آية 92). أما آيات الجهاد فلو تأملناها لرأينا أنها تنص عدة مرات على أن الجهاد بالمال وبالنفس. بل ان المال يأتي قبل النفس في الجهاد لأنه قد يفيد فيما لا يقدر عليه الفرد من معدات وغيرها من الاحتياجات.

والتأكيد على أهمية الإيمان بالغيب لم يرد فقط في سورة البقرة وإنما نطالع نفس المعنى في سورة "النحل": {طَسَّ تَلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (1) هُدًى وَبُشْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (3)؛، وأيضا في سورة "القمان": {الم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (2) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)}.

وتتنوع مجالات الغيب في القرآن لتشتمل على عدة موضوعات منها: خشية الله؛ الغيب المطلق كالموت؛ الغيب النسبي وزمنه في الماضي والحاضر والمستقبل؛ كما توضح لنا آياته نفي العلم به عن البشر؛ ونفي العلم به عن الجن؛ فالله وحده هو من يعلم غيب السماوات والأرض. وهو ما يؤكد لنا أن لكل مجال في السماوات السبع له غيبه. إلا أن الله سبحانه وتعالى الذي عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، لكنه يوحي به إلى بعض ممن ارتضى من الرسل: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} (الجن 26 و27)؛ {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ} (آل عمران 179). ويزخر القرآن بالعديد من الآيات المتعلقة ببعض الرسل التي اختارها، ومنها: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ} (يوسف 102)؛ {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ} (هود 49)؛ {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ} (آل عمران 44). لذلك نطالع بوضوح: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (الشورى 51). وابراهيم هو الوحيد من الأنبياء الذي يعرف بعضا من ملامح الغيب فيما يتعلق بالحياة والموت، إذ نطالعه يقول في سورة "الشعراء" (81) : {وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ}.

ولا تقتصر معطيات القرآن الكريم على هذه الأمثلة فحسب، إنما يحيطنا الله علما بأن هناك غيوب متعددة، وأن الله هو علام الغيوب. وهذا التعدد في مجال الغيب المطلق يضم غيب السماوات والأرض؛ وأنباء الغيب المتعلقة بالأمم السابقة، وعالم الغيب والشهادة الذي يضم جنات عدن ودرجات مختلفة من الجنات، وسدرة المنتهى، ويشهد محاسبة كل إنسان؛ وغيوب البشر من أسرار ونجوى: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (النحل 75).

وهناك آية تشير باقتضاب إلى غيب السماوات والأهلة بساكنيها: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} (النحل 65). و"من" هنا تشير إلى الكائنات العاقلة التي تعمّر السماوات والأرض بما أنها تتعامل مع مجال المعرفة، ولم يستكشفها البشر بعد. كما أنها لا تعني الملائكة لأن الملائكة لا تعرف سوى التسبيح وطاعة الله أو ما يكلفها به من مهام.

ومن أسرار الغيب علم الساعة التي لا يعرفها إلا الله وحده. وكلمة "الساعة" تضم وتشير الى الإنسان ولحظة نهاية عمره على الأرض، كما تشير إلى نهاية عمر الكون. غير أن علمها يقينا عند الله ولا يجليها لوقتها إلا هو، ولا تأتينا إلا بغتة: {وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ} (النحل 77).

وتؤكد لنا آيات الغيب على حتمية رجوعنا إلى الله جل جلاله، وأن العودة إلى بارئنا هي أول ما يبدأ به اطلاعنا على كل ما قمنا به في الحياة الدنيا. لذلك يحذرنا القرآن الكريم: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (البقرة 281). فإليه مرجعنا جميعا لأن وعد الله حق: {إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} (يونس 4).

"وَالَّذِينَ كَفَرُوا" هنا، في هذه الآية، تعود على جميع البشر وخاصة على المسلمين الذين لا يلتزمون بكل ما جاءهم في القرآن من علم وتوجيه لم يترك كبيرة أو صغيرة في مجال الدنيا والآخرة إلا وشرحه بإسهاب ووقاه حقه بالعديد من الآيات والأمثلة.

أما الآية التي تحيطنا علما بما سيحدث لنا ما أن نرد إلى عالم الغيب والشهادة: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (الجمعة 8)، وقد تكرر مضمون هذه الآية عدة مرات لندركها ونلتزم بها، فقد أثبت العلماء المهتمون بالمجال الروحي في الغرب وسبقونا بأبحاثهم بمراحل، أن أول ما يتعرض له المتوفي هو رؤية عمله ينساب كشريط سينمائي أمام بصره، وما أكثر الآيات التي تؤكد ذلك: {إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (العنكبوت 8) ؛ {وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (النور 64) ؛ {ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (لقمان 15). لذلك يقول المولى عز وجل: {لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ} (ق 22). والحديد هنا يشير إلى حدة البصر، إذ ينكشف له سجل حياته، كما أنه يشير لغة إلى لسان الميزان ودقته. أي ان حكمه على عمله سيكون حاد البصر والبصيرة، نافذ الوضوح ونافذ الادراك.

## عالم الغيب

تعني عبارة "عالم الغيب" كل ما غاب عن العيون سواء أكان محصلا في القلوب أو غير محصل. فهو المجال الذي لا ندري ما وراءه إلا إجمالا، وكل مكان لا يُدري ما فيه فهو غيب. كما تأخذ كلمة الغيب معنى

أثناء الغياب: غاب الرجل أي سافر. ولا يرد هذا المعنى في القرآن الكريم إلا في آيتين: في سورة "النساء" وفي سورة "يوسف". وتطلق عبارة "عالم الغيب" على كل ما يدور في الكون وخاصة فيما يتعلق باستمرار حياة الإنسان وتطوره منذ لحظة انتقاله من الحياة الدنيا الى عالم الآخرة، مروراً بالحساب والجنة والنار وكل ما نعلمه من موضوعات مختلفة وردت في القرآن - وما أكثرها - لكنها معرفة إجمالية لأهم النقاط.

ومن هذه المجالات أو من هذه الكلمات والمسميات التي وردت في صيغة أسئلة موجهة من المولى عز وجل، وهي أسئلة تدل على مدى ما يجهله الإنسان من تفاصيل هذه المسميات ويتعين عليه دراستها ومعرفتها. لذلك يلفت القرآن نظرنا بصيغ متعددة، منها أو أغلبها يحمل في طياته صيغة اللوم: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ؟} (النساء 28)؛ {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا؟} (محمد 24)؛ {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} (ص 29).

فلا نعلم عن الساعة مثلا إلا معنى نهاية كل شيء إجمالا، وإذا تتبعنا تفاصيلها في نص القرآن لذهلنا مما تحمله من معاني ومعطيات. ومن هذه الأسئلة الكاشفة: ما أدراك ما الحاقة؟ وما أدراك ما سقر؟ وما أدراك ما يوم الفصل؟ وما يوم الدين؟ وما سجين؟ وعليون؟ والطارق؟ وما أدراك ما العقبة؟ وما ليلة القدر؟ وما القارعة؟ وما الحطمة؟ إلى آخر ما ورد في نص القرآن من تساؤلات. فما أدانا بكل ما تحمله أو تدل عليه من تفاصيل حتى وإن كنا نجد معاني بعضها متفرقا مضغما عبر نص القرآن، والبعض الآخر علينا ان نبحث عنه.

فحتى وإن كانت بعض الكلمات تدل إجمالا على مجال واحد، فإن مجرد وجود اسم آخر لنفس الشيء تقريبا فذلك دليل على ان هناك اختلاف محدد في هذا المسمى الثاني. مثال كلمة منضدة ومائدة: فالكلمة الأولى تعني مسطح وله قوائم ترفعه عن الأرض، أيا كان الحجم أو الشكل، والكلمة الثانية تعني هذا المسطح وعليه طعام. والفرق بينهما واضح. وجميعنا نعرف إجمالا ما معنى النار حتى في مجال حياتنا الدنيا. لكن القرآن يتحدث عن نار الآخرة بعبارات مختلفة منها: جهنم؛ والسعير؛ وسقر؛ أو الحديث عن حطبها وخزنتها أو نار السموم، أو الخلود فيها أو حتى أبواب تلك النار. فنطالع مثلا:

**جهنم:** الجهنام هو القعر البعيد، وبه سُميت جهنم لبعدها قعرها. وهي من أسماء النار التي يُعذب الله بها من استحق العذاب من عبده. **والسعير:** سَعْر النار أي أوقدها وهيجهها وحولها لمسعورة شديدة المبالغة في اشتعالها. **وسقر:** هو اسم من أسماء جهنم مشتق من البُعد وأنها من شدتها تذيب الأجسام. ويقال لغتة سقرته الشمس أي أذابته. لذلك قال الله عنها أنها {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ}. **ونار السموم** هي نار الموت، تنفذ من مسام

الجلد وتسمى سموم، كما تقال أيضا للريح الحارة. وأغرب مسميات النار في القرآن هي **الحطمة**، في سورة "الهمزة"، إذ نطالع فيها: {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْنِدَةِ (7)}!

وأول وصف لهذه النار أنها نار الله الموقدة، وتحطم كل ما يلقي فيها، وهي باب من أبواب جهنم، وما يدور بها هو الحطم والكسر والدق. أي أنها تحطم كل شيء وتجعله حطاما منكسرا. ومنها الحديث: "رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا". إلا أن أغرب ما نطالعه عن هذه النار أنها "تطلع على الأفئدة"، وكأنها كائن حي تتمتع بحاسة الإدراك ويمكنها رؤية القلوب والاطلاع على ما بها. وفي نفس ذلك الوقت هي موصده عليهم، تحيط بمن فيها على شكل أعمدة متلاصقة ممدودة إلى أعلى. أي انه لا فرار منها..

وإن كان ربنا سبحانه وتعالى قد أمرنا بالإيمان يقينا بالغيب وأوضح لنا مجالاته وتنوعها، فهو يدلنا إجمالا أن الحياة الدنيا ليست إلا لعب ولهو وأن الدار الآخرة خير وأبقى، خاصة خيرا للذين يتقون. واستخدام كلمة "الدار" هنا، منسوبة للآخرة تؤكد أن هناك حياة أهلة، منتظمة، لها نظامها ومشاعلها وطقوسها أو تقاليدها. فالدار سُميت كذلك لغة لكثرة حركة الناس فيها. وفي حديث "زيارة القبور" نطالع: "سلام عليكم دار قوم مؤمنين". وسُمي موضع القبور دارا تشبيها بدار الأحياء لاجتماع الموتى فيها. والجنة تسمى "دار السلام"، وكل موضع حل به قوم للإقامة فهو دارهم. والدنيا "دار الفناء" والآخرة "دار القرار" و"دار السلام". وجمعها الدور، أي المنازل المسكونة الأهلة. وفي التنزيل العزيز: { وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ } . وكل ذلك يشير الي ان الدار تمتلئ بحركة ساكنيها، وعلينا ان نتدبر كل ذلك لاستكشاف مجالاتها المختلفة التي لا نعرفها.

وإن طالعنا في الآيات عبارة "دار السلام" فهناك "دار البوار"، و"دار المقامة"، و"دار القرار"، و"دار الفاسقين"، و"سوء الدار"، و"دار الخلد". والمرة الوحيدة التي تأتي فيها الدار معرفة هي عبارة "الدار الآخرة"، التي ترد خمس مرات في القرآن، وكأنها تشير الى خاتمة الديار والسكن، والانتقال الى مرحلة أخرى أو الى مجال آخر من الحياة..

ومما يؤكد المعنى السكني لكلمة "الدار" بخلاف كل ما تقدم، أن هناك آيات يرد بها كلمة "غرفة". والغرفة لغة لها معنيين: أحدهما يعني السماء السابعة، وهي أعلى السماوات مكانة، والمعنى الآخر الغرفة من المبنى. فنطالع في سورة الفرقان: {أُولَئِكَ يُجْرَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا} (75)، والمعنى واضح أن المقصود بها هنا هي الجنة العليا، وهي أعلى مراتب الجزاء.

أما الثلاث آيات الأخرى التي ترد فيها كلمة "الغرفة"، وجمعها عُرف وغرفات، فهي:

1 - {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ} (الزمر 20) ؛

2 - {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٍ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} (العنكبوت 58 - 59) ؛

3 - {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا رُفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ} (سبا 37).

وندرک من هذه الآيات الثلاث معنى السكن، والغرف المبنية فوق الغرف، وهي تشير الى ارتفاع تلك المباني التي تجري من تحتها الأنهار. وهي يقينا من مواد تختلف عن مواد بناء هذه الأرض الدنيا وتتفق مع رهافة الجسم الأثيري الشبيه بالدخان.

وقد لخص لنا القرآن الكريم إجمالاً الفرق بين الدارين، فالحياة الدنيا تزيّن للناس حب الشهوات من نساء وبنين وذهب وخيل وأنعام وحرث، وهو ما يعني متاع الحياة الدنيا.. أما الحياة الآخرة ففيها جنات تجري من تحتها الأنهار وأزواج مطهرة، ورضوان من الله، وهو ما نطالعه في آيتين من "آل عمران" (14 و15)، وغيرها..

والمجال الآخر يبدأ بالنسبة للإنسان فور انتقاله من الحياة الدنيا الى الحياة الأخرى.. وما أكثر ما يرد من آيات في القرآن حول تساؤل الإنسان أو استنكاره لمجرد وجود حياة أخرى، أو أنه سوف يُبعث فيها، وخاصة يُبعث حياً. ومنها:

1 - {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} (هود 7) ؛

2 - {أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ} (16) {أَوَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ} (17) {قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ} (الصفات) ؛

3 - {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا} (66) {أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} (67) { (مريم) ؛



4 - {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَنِنَّا لَمُخْرَجُونَ (67) لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)} (النمل) ؛

وإذا ما تكرر التساؤل حول البعث، بمعنى إعادة التجسد، فإن الأكثر غرابة أن يتساءل المرء باستنكار إذا ما بُعث حيا فهل من المعقول أن يكون ذلك في صورة أو على شكل "خلق جديد"، أي جسد حقيقي مثل الذي كان عليه وانتهي أمره بالموت، وما أكثر وأغرب هذه التساؤلات ومنها:

1 - {وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} (الإسراء 49) ؛

2 - {وَقَالُوا أِندَا ضَلَّلْنَا فِي الْأَرْضِ أَنِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ} (الإسراء 10) ؛

3 - {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلَّ مَزْقٍ إِنْكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} (سبا 7) ؛

ويأتي رد ربنا سبحانه وتعالى واضحا: {فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} (الإسراء 51).  
{وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67)}  
(مريم).

وتتواصل الأسئلة بإصرار لنطالع:

1 - {وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۗ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۗ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (الرعد 5) ؛

2 - {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۗ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۗ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا ۗ وَبُكْمًا ۗ وَصُمًّا ۗ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۗ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98)} (الإسراء).

وكان القرآن الكريم يوضح لنا أن مجرد الشك في أننا سنعود إلى الأرض في خلق جديد يُعد كفرا يستوجب العذاب. ثم يضيف ربنا سبحانه وتعالى بكل وضوح: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا} (الإسراء 72)، لأنه سبحانه قال في سورة "فاطر": {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17)} . وموقع عبارة "ويأتي بخلق جديد" في الآية لدليل على أنها تشير بوضوح الى بشر جدد، خلق جديد غير الذي كلن موجودا.

ولو تأملنا الآية 55 من سورة "طه" {مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى} لوجدنا أنها تشير بوضوح ان الله خلقنا من الأرض، وهو أمر معروف ومسلم به، ثم نطالع {وفيهما نعيدكم}، أي كنا أحياء فيها ومنتا وأننا نعاد إليها ثانية، وهو أمر معروف أيضا ومسلم به، ثم تأتي عبارة {ومنها نخرجكم تارة أخرى}، أي نعيدكم إلى العالم الآخر مرة أخرى. وكلها خطوات توضح إعادة الخلق من جديد.

ونطالع في سورة "النجم" تلخيصا واضحا لحياة الإنسان وإعادة خلقه في نشأة أخرى:

{وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّوحَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47)}. فعلى الرغم من شدة اختصار عملية الخلق في هذه الآية، إلا ان المعنى واضح: فإله قد أنشأ الإنسان {من نطفة تمنى}، ومثلما أنشأه أول مرة {عليه النشأة الأخرى}. فالإنشاء لغَةً هو إيجاد شيء لم يكن موجودا.

وهنا لا بد لنا من وقفة نعود فيها لتوضيح الفرق بين البعث والبرزخ والخلق الجديد. فالبعث هو الإحياء من الله للموتى، أي أنه بمثابة انتهاء مرحلة الحياة الدنيا بكل ما مر بها، وبداية مرحلة جديدة. والبرزخ هو الحد الفاصل ما بين الحياة الدنيا والحياة في الآخرة، فمن مات فقد دخل البرزخ. ولم ترد كلمة البرزخ في القرآن سوى ثلاث مرات: مرة واحدة في مجال الغيب، ومرتان في مجال علم البحار: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ} (الرحمن 19 و20) ؛ {حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100)} (المؤمنون) ؛ {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا} (الفرقان 53). و"حجرا محجورا" تعني حراما محرما، أي لا خلط ولا امتزاج بين نوعي المياه على الإطلاق.

وفي ذلك حكمة من الله لنرى بأعيننا أنه يمكن لمجالين مختلفين - حتى وإن كانا من نوعية واحدة، أن يتجاورا دون أن يختلطا، والمثال شديد الوضوح في آية البحرين، بل هي معجزة قاطعة ان يضرب لنا الله المثل بالمياه التي من الطبيعي انها تختلط بالماء. وكم يدعوننا رب العزة أن نتأمل الطبيعة من حولنا وفي أنفسنا لنفهم..

أما عبارة "الخلق الجديد" فهي عبارة يتغير مضمونها وفقا للموضوع الذي ترد فيه. فهي من ناحية تقال لكل مرحلة من مراحل خلق الجنين، بحيث ان كل مرحلة تمثل خلقا جديدا بالنسبة لما قبلها بما أنها مرحلة مختلفة تماما عما سبقها كالنطفة والعلقة والمضغة، فهو القائل سبحانه: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۗ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ تَبْعُونَ (16) } (المؤمنون). وتستوقفني عبارة "تبارك الله أحسن الخالقين" فالتمنيز يستوجب المقارنة، فهل هناك من يقوم بخلق شيء ما في مجال ما؟ ويبقى التساؤل مطروحا لغةً.

فالله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه يرجع الخلق مرغما وليس اختيارا. والتساؤل صريح في نص القرآن: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَانًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (البقرة 28)، والتتالي هنا بمثابة مراحل مختلفة. كما نطالع أيضا: {وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (فصلت 21)؛ كما نطالع في سورة "يس": {وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)}.

فالإنسان ينسى كيف خلق ويتساءل عن إعادة خلقه من جديد بعد أن صارت العظام رميما، أي ذلك الذي يبقى من نبت عام، بعد أن يبلى، فالرميم هو الخلق البالي من كل شيء. ويقول المولى بوضوح: {قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ}. وتتكرر عبارة "أول مرة" دلالة على إعادة خلق الإنسان مرة أخرى في جسد مختلف. فنطالع في سورة الأنعام: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} (94)، وغيرها كثير. ومن الواضح أن عبارة "أول مرة" في هذه الآيات تعني أن هناك مرات أخرى لأن تحديد مقولة "أول مرة" تشير بكل تأكيد إلى مرات تالية. مثلما لو قلنا الابن الأكبر أو الابن البكري، فذلك يعني يقينا أن هناك أخوة أو أخوات غيره.

ونطالع في سورة "غافر": {قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا انْتِنِينَ وَأَحْيَيْتَنَا انْتِنِينَ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ} (11). ثم نطالع في سورة "العنكبوت": {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (20).

أي إن لدينا النشأة الأولى، وإعادة الخلق، وهناك قوم أحياهم الله مرتان وأماتهم مرتان ويتمنون الخروج من العذاب، ثم نطالع عبارة النشأة الآخرة. أي ان هناك يقينا أكثر من نشأة أو أكثر من خلق للإنسان، أو إن شئنا الدقة للروح الواحدة فالروح لا تموت ولا تقنى. وإلا لما نصحنا المولى عز وجل أن نسير في الأرض وننظر كيف بدأ الخلق. كما لفت نظرنا أكثر من مرة ان نتأمل الطبيعة وكيف تتوالى عملية الإنبات وطرح الثمار دورات متعددة متتالية، سواء أكان ذلك واضحا في الشجرة الواحدة وطرحها المتتالي كل موسم، أو في المحاصيل المختلفة على اتساع رقعتها. فذلك هو الله الذي لا إله إلا هو {لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (القصص 70).

وهذا الرجوع الذي ستم فيه المحاسبة يتبعها الثواب والعقاب، وتتوالى دورة الخلق والتطور أو التقدم والرقى، وسينعم الإنسان بنتيجة عمله عند العودة أو سيشقى، إذ نطالع في سورة "الأنعام" (122): {أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}. بل نطالع في نفس سورة "الأنعام" آية (133) تؤكد لا على إعادة خلق الإنسان بل خلقه من قوم آخرين غير ذلك الأب والأم اللذان أنجباه أول مرة أو ذات مرة من مرّات خلقه. فهي توضح أو تؤكد على إعادة خلق الإنسان أو إعادة تجسد روحه: {وَرَبُّكَ الْعَنِّي ۖ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ مَن يَبَدِّلُكُمْ مِمَّا يَشَاءُ ۚ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن دُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ}.

ولقد أوضح لنا الله سبحانه وتعالى الدورات الكبرى للخلق في آية عظيمة الوقع على العقل والقلب معاً، إذ يقول بوضوح: {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۗ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۖ وَعَدًّا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} (الأنبياء 104). وحين يقسم الله سبحانه ويتخذ على نفسه وعداً فذلك يعني أن وعده نافذ لا محالة. فما عليه إلا أن يقول للشيء "كن فيكون".

وتدل هذه الآية الكريمة على أن عملية الخلق تتواصل في حركة دائرية بين الحياة والموت، وبين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وأن كل ما خلقه الله يسري عليه هذا القانون. فكما بدأ أول خلق يعيده. فهو القائل سبحانه: {نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62)} (الواقعة). وقد كانت النشأة الأولى في الأرض التي لم تنتهي بعد من تأمل ودراسة وفهم كل مجالاتها وأبعادها. وقد تكون النشأة التي لا نعلم عنها شيئاً في مجال آخر من مجالات السماوات السبع، في جسد أثيري يتمشى مع طبيعة هذه السماوات، أو في نفس الشكل لكن المكونات مختلفة.

وإن قمنا بتلخيص ما تقدم إجمالاً نجد أن هناك عدة آيات تؤكد أن الله غيب السماوات والأرض، وأن عنده مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو سبحانه. فهو يقذف بالحق علام الغيوب.. أي أن هناك العديد من الغيوب في مجالات مختلفة، بما أنه ما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين. لذلك نطالع أن الله عز وجل يعلم سرهم ونجواهم وأنه وحده علام الغيوب، ولا يظهر على غيبه أحداً، إذ نطالع في سورة "النمل" (65) بوضوح: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ}. وهي آية تحدد من جهة تعدد الغيوب وإن كل ما ومن في السماوات والأرض لا يعلمون شيئاً عن الغيب الموجود فيها.

وبعد الحياة الدنيا يؤكد لنا القرآن الكريم في أكثر من آية أننا سنرد إلى عالم الغيب والشهادة فينبئنا بما كنا نعمل. وهو ما أثبتته أيضا العلماء في الغرب الذين درسوا هذا المجال من الناحية الروحية، وأن أول ما سوف يواجه به الإنسان هو شريط حياته وأعماله ينساب أمامه.

ويقسم المولى عز وجل بما نُبصر وما لا نُبصر، ويبدأ بالذين اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وغرتهم الحياة الدنيا: {قَالِیَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ یَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآیَاتِنَا یَجْحَدُونَ} (الأعراف 51)، ثم يوضح رب العزة أنه مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلِیْهَا، فما ربنا بظلام للعبيد. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، لأن سعي الإنسان سوف يُرى ثم يجزأه الجزاء الأوفى، لذلك يحذرنا الله بوضوح: {لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْیَوْمَ حَدِيدٌ} (ق 22).

فإذا جاءت الطامة الكبرى، يوم يتذكر الإنسان ما سعى، يؤمر بوضوح: {اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْیَوْمَ عَلَیْكَ حَسِیْبًا} (الإسراء 14). فلا مفرٍ من هذه المواجهة الصارمة، {یَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَیْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَیْنَهَا وَبَیْنَهُ أَمَدًا بَعِیدًا} وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30) {آل عمران}. وتُدْهِشُ النُّفُوسَ مِمَّا تَرَىٰ مُتَسَائِلَةً فِي هَلْعٍ: {يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا یُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِیرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا یَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا} (الكهف 49).

وإن كنا طالعنا فيما تقدم أن الله لا يطلع أحدا على الغيب فذلك لا ينطبق إلا على البشر بصفة عامة، لأنه هو عالم الغيب ولا يُظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول. فقد أوحى من أنباء الغيب إلى كلٍ من يوسف وعمران وهود ويونس وإبراهيم الذي أطلعه على جزء من ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين (الأنعام 75). كما أطلع سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، إذ يوجد في سورة "الرعد" (40): {وَإِن مَّا نُرِیْتَكَ بَعْضَ الَّذِی نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیْتَكَ فَإِنَّمَا عَلَیْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}. كما نطالع في سورة "غافر" (77): {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِیْتَكَ بَعْضَ الَّذِی نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّیْتَكَ فَإِلَیْنَا یُرْجَعُونَ}. أي إن كان الله يطلع الرسول عليه الصلاة والسلام بعض الذي يعد الناس به، أو يستوف له مدته على الأرض، فذلك لا يمنع من أن الرسول عليه البلاغ فقط والحساب على الله سبحانه وتعالى، فالإيه مرجعنا جميعا والله شهيد على ما نفعل..

وكما إن الله يجتبي من رسله من يشاء ليطلعه على الغيب، فإنه يجعل أحيانا من الملائكة رسلا، فالله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس (الحج 75)، لكنه يمنع ذلك عن الجن. فنطالع في سورة "سبا" (14): {فَلَمَّا حَرَّرْنَا نَبِیَّتِ الْجِنِّ أَنْ لَوْ كَانُوا یَعْلَمُونَ الْغَیْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}، وإن كان الله قد اختار لهم قبل ذلك رسلا من بينهم، إذ نطالع في سورة "الأنعام" (130): {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ یَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ یَقْصُونَ عَلَیْكُمْ

آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}. وعبرة "وغرتهم الحياة الدنيا" توضح أنهم يشاركوننا نفس الأرض، إلا أنهم يرونا ونحن لا نراهم.

وإطلاع بعض الرسل أو بعض الملائكة على شيء من الغيب أو شيء من العذاب الذي يتوعد به الظالمين، فذلك لا يعني أنهم يطلعون على كل شيء. لذلك نطالع في القرآن على لسان سيدنا محمد: {وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} (هود 13). وتكرر نفس الآية في "الأنعام" (50). ثم نطالع في "الأعراف" (188): {وَلَوْ كُنْتُمْ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُمْ مِنَ الْخَيْرِ}. لذلك يقول المولي عز وجل: {وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ} (الشورى 5).

والغيب في هذه الجزئية لا يقتصر على البشر أو الملائكة فحسب، فلو تأملنا الآيات لاستخلصنا منها أن الله قد خلقنا من تراب، وخلق من أنفسنا أزواجاً، ومن معاني "زوج" و"أزواجاً" في لسان العرب: أشكالاً وأصنافاً. وخلق السماوات والأرض، واختلاف لغاتنا واللوان اجناسنا، ومناطنا بالليل والنهار، والبرق والمطر به يحيي الأرض بعد موتها، كل تلك الآيات لمن يعقلون، وتقوم السماء والأرض بأمره وعندما يدعوننا ويأمرنا نخرج منها. إلا أن ذلك الكون الرحب به غيرنا من الكائنات. إذ نطالع في سورة "الروم" (26): {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَه قَانِتُونَ}؛ وفي سورة "يونس" (66): {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ}؛ وفي سورة "مريم" (93): {إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}؛ وفي سورة "الإسراء" (44): {نَسِجَ لَهُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضَ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}؛ أما في سورة "الشورى" (29) فنطالع: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ}.

أي أنه يوجد في السماوات والأرض كائنات حية عاقلة، لأن "من" لغة لا تقال إلا للعاقل. كما أن في السماوات والأرض دواب مثلما في الأرض أو على شاكلة أخرى. فالدابة اسم لما دب من الحيوان، مميزة وغير مميزة؛ وكل نفس دابة، فقوله تعالى: {مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ} تعني في التفسير من دابة الإنس والجن وكل ما يعقل. {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} (يس 36). أي أن هناك أماكن أخرى يتم فيها أو منها الخلق غير الأرض وغير أنفسنا، وقد رأينا أنها السماوات السبع، وهناك ما بينها ولا نعلمه.. وقد بدأ العلماء في الغرب يتحدثون عن كائنات أخرى في الفضاء أو على كواكب أخرى.

لذلك نطالع في سورة "الشورى" (20): {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ طَوْمًا مِمَّنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}. والحرث هو العمل في الأرض زرعاً أو غرساً، والعمل للدنيا وللآخرة، ومتاع الدنيا والثواب والنصيب. وفي مختلف معانيها هناك العمل/الجهد كعنصر مشترك. وهو ما يعني أن في كلا المجالين، في الدنيا وفي الآخرة، هناك العمل والسعي للترقي والتقدم. وأن وجودنا في العالم الآخر ليس كأجسادنا في القبور، والتي مصيرها الى التحلل والزوال، وإنما هناك حياة تتواصل ونسعى فيها، إذ نطالع في "آل عمران" (170): {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ} (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (170).

فالحياة تتواصل، والأموات بالنسبة لنا هم أحياء عند ربهم يُرزقون، وهم فرحين بما آتاهم من فضله، ويستبشرون خيراً، فرحين بالذين لم يلحقوا بهم بعد وكأنهم في انتظارهم. إذ إن وجودنا في عالم الغيب هو الأصل وأنا سنرد إليه لنواصل الحياة هناك بصورة أخرى. وهو ما نطالعه في سورة "التوبة" (105): {وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (105). وكلمة "ستردون"، أي ستعودون إليه ثانية، توضح لنا أن الروح هي أصلاً من عالم الغيب قبل أن يجسدها الله سبحانه وتعالى في الأرض، وأنها بعد موتها ستعود الى ذلك العالم الذي جاءت منه لتواصل حياتها في تكوين مختلف، من الروح والنفس، أو ما يُطلق عليه "الجسم الأثيري"، لتواصل مشوار عملها وتقدمها ورفقيها، أو تعود إلى الأرض في خلق جديد.

## الوحيّ

كلمة الوحيّ من الألفاظ القرآنية التي لها دلالات متعددة خاصة في المجال الغيبي. وتعني لغة "إلقاء علم أو معلومة في الخفاء". ولقد ورد لفظ "الوحيّ" في القرآن 71 مرة، أربعون منها بصيغة الفعل، و31 مرة بصيغة الاسم. كما ورد في القرآن على عدة معاني: فقد أنت بمعنى الإلهام، والإرسال، والإلقاء، والإشارة، والأمر، أو رؤية في المنام. كما جاءت بتصريفات مختلفة وفقاً للمضمون: أوحى، أوحيت، أوحينا، يوحي، نوحى الخ، وجميعها معبرة عن الأمر الإلهي للرسل والأنبياء. وهو مباشر من الله أو من الملائكة الحفظة، كإلهام الله لبعض مخلوقاته {وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ}؛ ووحى الإرسال، والمقصود به نزول جبريل عليه

السلام الى الرسل والأنبياء لينقل إليهم ما كلفهم الله به من شرائع او معلومات. وفي جميع الأحوال لا تطلق كلمة الوحي في اللغة العربية إلا في هذا الإطار الواقع في مجال الغيب.

ولغويا فإن كلمة "الوحي" تتضمن عدة معاني منها الإشارة، الإيماء، الكتابة، السرعة، الصوت، والإلقاء في الروع إلهاما وبسرعة. وهي في الواقع تتم بسرعة غريبة وكأن المعلومة كلها تنتقل دفعة واحدة من الراسل إلى عقل الإنسان ولا تنساب كلمة كلمة بالتدرج مثلما يحدث مع النطق أثناء الحوار.

وتوارد الخواطر يطلق عليه في الغرب Telepathy، وهو انتقال أفكار أو مشاعر وانطباعات من شخص لآخر خارجا عن أية وسيلة من وسائل التواصل الحسية المعروفة. أي أنه تبادل الأفكار أو المعلومات بين شخصين عن طريق المجال الروحي أو الغيبي، وتمثل جزءاً من الإدراك بعيدا عن الوسائل الحسية المعروفة.

أما المعنى الاصطلاحي للوحي فمدلوله أن يُعلم الله مَنْ اصطفاه من عباده ما أراد اطلاقه عليه من ألوان الهداية والعلم، بطريقة خفية غير معتادة للبشر، ويكون على أنواع شتى: فمنه ما يكون مكالمة أو إلهاما في القلب، أو بواسطة أمين الوحي جبريل، وهو من أشهر أنواع الوحي وأكثرها استخداما خاصة في تنزيل القرآن. ويمكن القول اجمالا أن الوحي هو صلة بين الله ومن يصطفيه من خلقه لتحمل أمانة ومسئولية التبليغ أو لأي مهمة أخرى.

ويمكن تقسيم الآيات المتعلقة بالوحي إجمالا الى أربعة موضوعات هي: وحي القرآن وتنزيله ؛ الوحي للأنبياء والرسل السابقين ؛ اصطفاء الله لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لتحمل مسؤولية تبليغ القرآن ؛ إدانة الشرك بالله. وما أكثر ما جاء من آيات في هذه الجزئية تحديدا..

وتوضح آيات المجموعة الأولى، المتعلقة بالقرآن أنه أنزل في شهر رمضان هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وان الله عز وجل أنزله قرآنا عربيا لعننا نعلم ونذكر ما يتضمنه. وأنه سبحانه قد أنزله قرآنا عربيا وصرّف فيه من الوعيد ما يجعلنا نتقي الله أو أن يحدث لنا ذكرا، أي أن يترك فينا أثرا نهدي به في مسيرة هذه الدنيا. ثم يوضح لنا المولي قدر هذا القرآن ووقعه قائلا: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (الحشر 21)، فبالحق أنزله الله فعلا وبالحق نزل (الإسراء 105).

ونطالع أكثر من عشر آيات يوضح فيها سبحانه أن هذا الكتاب قد "أنزل تنزيلا"، واستخدام المفعول المطلق يعني تأكيد حقيقة إنزال القرآن من عند الله تنزيلا حقيقيا. وهو ما نطالعه بعدة صيغ لندرك: {وَهَذَا كِتَابٌ



أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا { (الأنعام 92) ؛ { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } (الأنعام 155) ؛ { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } (يوسف 2) ؛ { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا } (الرعد 37) ؛ { أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } (إبراهيم 1) ؛ { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا } (طه 113) ؛ { وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ } (الأنبياء 50) ؛ { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ } (الحج 16) ؛ { كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ } (ص 29) ؛ { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ } (الدخان 3) ؛ { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ } (القدر 1).

وبعد كل هذا التأكيد من الله أن القرآن أنزل تنزيلا حقيقيا على النبي صلوات الله عليه، وأنه سبحانه قد أوحاه إليه وحيًا حقيقيا كما سبق وأوحى إلى نوح والتبيين من بعده، نطالع العديد من الآيات التي تتضمن عرضا تاريخيا لأسماء بعض الرسل والنبیین. ولعل آيات سورة "النساء" أكثر شمولا من غيرها على بعض الأسماء: { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164)}. أي ان تنزيل القرآن الكريم ووحيه للأنبياء والرسل هو الأسلوب المتبع لهداية البشر.

غير ان آخر الآية 164 من سورة "النساء" تحيطنا علما بأن الله قد كلم موسى تكليما، أي تحدث معه بلغة الكلام وليس وحيًا. وهو ما نطالعه في آية أخرى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } (الأعراف 143). وهذا الاستثناء الذي خص به موسى تؤكد الآية 51 من سورة "الشورى": {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ}، فالله طاقة مطلقة وهو ما لا يمكن قياسه أو تحمل وقعه.

كما نطالع في آيات الوحي إلى الرسل والأنبياء مزيدا من التفاصيل المتعلقة بكل منهم، وهو ما يُعد من أنباء الغيب لأهم ولّت. فمنها آيات موجهة الى نوح، وإلى ذكريا وإلى موسى وأخيه، وإلى أم موسى، وإلى يونس وإلى إبراهيم وإلى يوسف. إلا أن أكثر آيات الوحي وتنزيل القرآن موجهة لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام لتأكيد رسالته وتأكيد أنه وحي منزل من عند الله، وأن الله عز وجل قد اصطفاه لحمل رسالة تبليغ القرآن وأنه تعالى قد أرسله مبشرا ونذيرا ليقراه على الناس ويأخذ بيدهم من الظلمات إلى النور.

ومن أوضح هذه المجموعة من الآيات الشاملة لمضمون الرسالة تلك التي يوجهها الله لمحمد: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا (23) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كُفُورًا (24)} (الإنسان). وتتضمن هذه الآيات في مجملها ثلاث نقاط: تنزيل القرآن على سيدنا محمد، وأنه يتعين عليه أن يصبر ويتحمل مسؤولية ومشقة ذلك الاختيار الإلهي، وأنه لا يجب عليه طاعة أي آثم كافر بحق الله ووحدانيته. وتكاد معظم الآيات الموجهة إلى الرسول تتضمن هذا المعنى، ومنها: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا} (الإنسان 23) ؛ {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ} (يوسف 3) ؛ {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام 106) ؛ {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الزخرف 43).

ومن أهم ما توضحه هذه المجموعة من الآيات الموجهة لسيدنا محمد أنها تعكس عملية تبليغ هذا القرآن للجميع وخاصة للمشركين وردود الأفعال التي صادفت مسيرته. وهو ما يكشف عن موقف المشركين وموقف قياداتهم الذي لم يتغير منذ القرن السابع وحتى يومنا هذا: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ} (فصلت 6). وتكشف الآية التالية موقف المشركين وجبروتهم الممتد منذ عصيانهم السابق وشركهم بالله حتى مطالبة سيدنا محمد أن يأتي بقرآن غيره أو أن يبدله. وهو ما يحاولونه حالياً، في القرن الواحد والعشرين. فقد أعدوا في فرنسا وغيرها لجان لتحديد الآيات التي يريدون القيام بحذفها من القرآن، أو تلك هي أمانيتهم..

وتوضح آية {وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ لَّا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ ۗ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَفَاتٍ نَفْسِي ۚ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (يونس 15). ويقول المولى سبحانه: {وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونكَ عَنِ الَّذِي أُوحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۗ وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْلَا أَن تَبْنَتْنَا لَفَدَّتْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74)} (الإسراء). وينبته المولى في آيات أخرى: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام 106) ؛ {فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (الزخرف 43) ؛ {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ} (فصلت 6)، وكل ذلك لأنهم يريدون أن يغيروا كلام الله (الفتح 15).

كما ان إدانة الشرك وتحريف النصوص من القضايا الأساس لتنزيل القرآن والتي لا مهرب من التعرض لها وضرورة التصدي لها. بل ليس من المبالغة أن نقول إن ثلث آيات القرآن تتعرض وتتناول موضوع الشرك بالله وتلاعبهم بالنصوص.

كما يصعب إنهاء هذه الجزئية المتعلقة بالوحي دون التوقف عند بداية سورة "الرحمن"، إذ أنها تتضمن معطى جدير بالتأمل والبحث والدراسة، وذلك لكل ما قد ينجم عنه من معلومات، فالسورة تبدأ بقول: {الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4)}. ونفهم من ترتيب الكلمات أن القرآن كان موجودا قبل خلق الإنسان وأن الله سبحانه وتعالى قد علمه لكائنات ما قبل مرحلة خلق الإنسان وتعليمه البيان، أي تعليمه الفصاحة مع الذكاء. وقد قال بعض المفسرين أن المقصود بالإنسان النبي محمد وبالبيان القرآن. إلا أننا لو رجعنا إلى مضمون نص القرآن وأهمية ترتيب الكلمات والاعتماد على التركيز الشديد والاختصار المعجز في صياغة الأحداث لوجب علينا التوقف عند هذه الآية، خاصة إذا عدنا إلى الآيات التي تشير إلى الجان والى سورة "الجن"، وقد خلقهم الله قبل الإنسان، وأنهم كانوا يستمعون إلى القرآن، ثم حرمهم الله من ذلك لسبب ما، بأن أعدّ لهم رجوم ترجمهم في السماء الدنيا وتمنعهم من الاقتراب من السماوات.

وهنا تجب الإشارة الى أن مجال الوحيّ إلهاماً، أي بانتقال الفكرة من مصدر الى متلقي، يدخل علمياً في المجال الروحي في علم توارد الخواطر، أي الاتصال عن بُعد، وهو من المجالات الروحية التي لها تدريباتها ويمكن تنميتها. وما أكثر ما قام به علماء الغرب من أبحاث وتجارب في هذا المجال أو في هذه الجزئية.

كما رأينا أيضاً في جزئية الوحيّ، وسيلة أخرى من وسائل الاتصال الروحي، وهو الاتصال المباشر عن طريق الجلاء البصري. وإن كانت الوسيلة لم تتم في تجربة موسى عليه السلام، حينما طلب من الله أن يراه جهازة، لأنها تؤكد استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى لأنه الطاقة المطلقة الواجدة لهذا الكون ومن المحال أن يتحمل مشاهدتها أي مخلوق من المخلوقات. أما وقائع الجلاء البصري وإمكانية ان يرى الإنسان أشياء لا يراها الآخرون فهي توجد في أكثر من آية في نص القرآن، خاصة في معجزة المعراج وغيرها.

## الرجوع إلى الله

ما أكثر الآيات التي تتناول حقيقة الرجوع إلى الله، أو تحديداً وتأكيداً: رجوعنا إلى الله. فالرجوع إليه حتمي، الرجوع الى الله مفروض علينا فرضاً على أنه بمثابة نهاية حلقة من حلقات سلسلة الخلق الممتدة والمتواصلة، الى ما شاء الله، بين الحياة الدنيا والعالم الآخر. فالإنسان لا حول له ولا قوة في هذا الموضوع، موضوع التجسد، بأن يجسد الله روحاً في جسد، إذ يُفرض عليها المجيء إلى الدنيا والتواجد فيها لفترة محدودة، وفقاً لإرادة الله، لتمر بتجربة الالتزام بتأدية الأمانة وتجربة الاختيار بكل ما تتضمنه من حسم أو موارد، ثم يُفرض

عليها مغادرتها. أي أننا لا نملك أي شيء حيال المجيء أو الرحيل. بل ليس لنا سلطان على أي شيء حقا سوى ما يقع في نطاق دائرة اختيارنا وأعمالنا في فترة وجودنا في الحياة الدنيا، والتي سوف نحاسب على كل ما قمنا به أثناء وجودنا بها من خير وشر أو عدم مبالاة.

وتختلف صياغة الأمر بالعودة في العديد من الآيات، ومنها: وإليه ترجعون ؛ ثم إلينا تُحشرون ؛ كلّ إلينا راجعون ؛ إلى ربهم راجعون ؛ وإلينا تُرجعون ؛ أنهم إلى ربهم راجعون ؛ وإليه تُقَلَّبون ؛ وإليه مرجعكم ؛ ثم إلى ربكم مرجعكم ؛ إلينا مرجعهم. وكل ذلك الوضوح في تكرار العبارة وتشكيلها بصيغ مختلفة لأنه {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ} (هود 123). والملاحظ أن جميع تصريف أفعال هذه العودة ترد بصيغة فعل الأمر، أيا كان محتوى الآية.

ولو تأملنا بعض هذه الآيات لوجدنا تلخيصا بارعا لعملية الخلق والعودة: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} (المؤمنون 115) ؛ {كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (العنكبوت 57) ؛ {هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (يونس 56) ؛ {وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (فصلت 21) ؛ {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (الروم 11).

ولو تأملنا آخر آيتين وما ورد بهما من تحديد لوجب علينا التريث لنفهم، بلا أفكار مسبقة أو حتى بلا أفكار غير دقيقة، فالله سبحانه {خلقنا أول مرة}، و{اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}، أي يعيد الخلق مرة ومرات فالعبارة مفتوحة وغير محددة، لرأينا إشارة واضحة إلى تكرار خلقنا، فهو سبحانه وتعالى خلقنا اول مرة، وأنه جل شأنه يبدأ الخلق ثم يعيده، بمعنى إعادة نفس الخلق مثلما يخلق غيره، حتى نفهم ونعي توجيهاته وتعاليمه ونقوم بالالتزام بها. وهو ما يبدو واضحا من الآية التالية: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (البقرة 28). وهي آية تتضمن فكرة تكرار عملية الخلق، الإحياء ثم الإماتة، أي إرسالنا إلى الأرض ثم يأمرنا بالخروج منها، ثم يعيدنا ثم يأمرنا بالعودة إليه.

فهو سبحانه الذي فطرنا ابتداء، أي خلقنا وأوجدنا في الشكل الذي نحن عليه، وأحسن تصويرنا، وبيتنا بالشر وبالخير فتنة، فكلاهما اختبار لنا ولردود أفعالنا وتصرفاتنا وكيفية تقبلنا لكل منهما ومدى التزامنا بتعاليمه.. ومهما وصل مدى رقينا وتطورنا أو مدى خلافتنا وتناحرنا وتقطع أمرنا فيما بيننا كبشر، فكل ذلك إلى زوال، ونعيد الكرة إلى أن نفهم ونعي حقيقة تجربة وجودنا في الدنيا أو إعادتنا فيها.

وأهم ما يستوقفنا في الآيات المتعلقة بالرجوع إلى الله، وما أكثرها، تلك التي نطالع فيها مطالب الذين يكونون على مشارف الموت، فيدركون أنهم في الطريق إلى عالم الحساب، وينتبهون إلى كل ما فرّطوا فيه وكل ما

قاموا به من تقصير، فيطلبون البقاء في الأرض أو العودة إليها إن كانوا قد غادروها، ليكفروا عن سيئاتهم ويقومون بالأعمال الصالحة، إذ نطالع:

{حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ (100)} {المؤمنون} ؛  
{وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا} {الأنعام 27} ؛ وحين يقفون أمام جهنم ولهيبها يتساءلون: {فَهَلْ لَنَا مِن شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} {الأعراف 53}، أو {رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} {السجدة 12}. وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون: {هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ} {الشورى 44}.

إلا أن الله عز وجل يقول: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} {الأنعام 28}. وذلك لأنهم لم يدركوا جوهر رسالة وجودهم على الأرض ولم يدركوا معنى أنهم خلفاء الله سبحانه وتعالى، وأنهم قد قبلوا الأمانة وهي إعمار الأرض والعمل على تقدمها ورفيها، والتعارف بين البشر وتبادل الخبرات والمعارف، وليس للتطاحن والصراع لتكوين الثروات وتكديسها، وليس لتصويب التفاوت والفجوات بين الناس بالظلم والعدوان. فقد أمرنا ربنا بعمارة الأرض، وأن ننفق مما رزقنا - وما أكثر ما رزقنا به في مختلف المجالات. كما أمرنا بالقسط والصلاة، وأن ندعوه مخلصين له الدين، فكما بدأنا روحا ونفسا نعود إليه روحا ونفسا حاملين كل ما قمنا به من انضباط وتقصير، تاركين خلفنا كل ما قمنا بجمعه وتكديسه. فلو تذكرنا بعض الآيات لرأينا أن نداء الخروج من الحياة الدنيا موجه للنفس، وأن الوقوف يوم الحساب سيكون للنفس، تلك النفس اللوامة، التي ألهمها الله فجوره وتقواها..

وكما يتضح لنا من الآيات السابقة، فإن الله يبدأ الخلق ثم يعيده (يونس 34)، ويعرب عن تساؤله، جل في علاه، {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} {العنكبوت 19}. {ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا} {نوح 18}، أي يخرجنا حقا، يخرج الروح والنفس حقيقيا لأن الروح لا تفنى وإنما تعود إلى عالم النور، فهي جزء من روح الله (ص 72)، تحملها النفس، وعاؤها، ويخرجان معا من الجسد الذي مآله إلى التراب.. تعودان من حيث أتيتنا للحساب، فالله الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، كل ذلك الخلق أهون عليه من بناء السماوات والأرض وما بينهما..

وليس من المبالغة أن نقول إن وعد الله حقا، فهو يبدأ الخلق ثم يعيده، ويوم يطوي السماء كطي السجل للكتاب يؤكد لنا المولى سبحانه {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} {الأنبياء 104}. وحينما يعد رب العزة ويقسم بعمل شيء ما فما علينا إلا الفهم والتصديق والطاعة.

## البعث

كلمة "البعث" من الكلمات التي عادة ما تأخذ معنيين أساسيين في اللغة: بعثه يبعثه بعثا: أي أرسله وحده ؛ وبعث به: أي أرسله مع غيره. والمعنى الأول هو الأكثر استخداما في القرآن. وكلمة البعث وفقا للفقهاء والمفسرون تعني في بعض الآيات: "الإحياء من الله للموتى"، ومنه قوله تعالى {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (البقرة 56). وإن بدى الموضوع منطقيا مقبولا من المؤمنين إلا أن المشركين لا يقبلون ولا يقرون فكرة البعث بمختلف معانيها، وما أكثر الآيات التي وردت في القرآن حول رفضهم لفكرة البعث، ومنها: {وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} (الأنعام 29) ؛ {إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} (المؤمنون 37).

ولا يتوقف إنكارهم للبعث عند هذا الرفض بل يزايدون عليه قائلين بشيء من التعنت: {قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} (المؤمنون 82) ؛ {إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} (الصفوات 16)؛ {وَكَاثُوا يَقُولُونَ أِنَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ} (الواقعة 47). بل لقد زaidوا على هذا الاستنكار موضحين: {وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} (هود 7). ومن الواضح أن عملية رفض كلمة "البعث" أو حتى فكرتها أنها مرفوضة بكل تصريحاتها أو بكل معانيها سواء أكانت بفكرة العودة إلى الحياة، بمعنى أن لا حياة بعد الموت مباشرة، أو بعد أن يتحلل الجسد ولا يبقى منه إلا التراب والعظام، واعتبروا البعث "سحر مبين".

ومن الواضح أنهم لم يتبينوا مختلف معاني هذه الآيات أو حتى الاستخدامات المختلفة لمعنى كلمة "البعث" في القرآن. فهناك البعث، بعث الروح والنفس وإرسالهما إلى العالم الآخر فور لحظة الوفاة أو هي تتم في نفس لحظة الانتقال من مجال لمجال آخر. فالروح لا تموت على الإطلاق بما أنها جزء من روح الله كما أوضح لنا عند خلق آدم، والنفس التي هي وسيلة وجود أو تداخل الروح بالجسد، تلك النفس اللوامة التي ألهمها الله فجورها وتقواها، هي التي تتحمل تبعات أعمالها واختياراتها. فما من آية واحدة من آيات القرآن الكريم، فيما يتعلق بالموت والحساب والوقوف أمام النار يوم الحساب تذكر الروح وإنما دوما تذكر النفس، ومن هذه الآيات: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ} ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (العنكبوت 57) ؛ أو {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ} (27)

ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) { (الفجر)؛ } وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ { (البقرة 281).

وهناك الرفض لمعنى الإحياء، وفقا لتساؤلهم، إحياء الروح والنفس بعد تحلل الجسد، غير مدركين أن بعث الروح والنفس، بمعنى إرسالهما إلى العالم الآخر قد تم فعلا في نفس لحظة انفصالهما عن الجسد، او فور قطع "الحبل الفضي" الذي يربطهما بالجسد - على حد تعريف الدراسات الروحية. فهذا الحبل الفضي الذي يربط الروح والنفس بالجسد أشبه ما يكون بالحبل السرى الذي يربط الجنين بأمه في مرحلة تكوينه.

بل إن المشركين يرفضون أيضا أن الروح والنفس تعودان إلى الأرض مرة بل مرات أخرى في "خلق جديد"، كما سنرى بشيء من التفصيل في الفصل الثاني، بل ويعتبرونه "سحر مبین". ويجيب المولى عز وجل على استنكارهم هذا قائلا، ردا على مختلف أشكال رفضهم، سواء أكان انفصال الروح والنفس عن الجسد وانتقالهما الى العالم الآخر في لحظة الموت، أو إعادة التجسد، أي إعادة إرسال الروح الى الأرض في جسم جديد، وهو ما نطالعه خاصة في سورة "النازعات". وذلك لأنه مجرد التساؤل أو الشك في أننا سنعود إلى الأرض مرة أخرى في "خلق جديد" يعد كفرا بالنسبة للمولى سبحانه وتعالى، وهو ما ندركه بوضوح في الآية التالية:

{وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۗ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرِفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98) { (الإسراء). فما الذي يمكن أن يقال لهم أكثر من تأكيد ربنا سبحانه وتعالى أننا بعد الانتقال إلى العالم الآخر مع لحظة الموت، فالاثنتان متواصلان يتمان في لحظة مستمرة واحدة، وأنا بعد ذلك سنعود، سنبعث في خلق جديد ؟

والتساؤل حول الإحياء بعد الموت متعدد الصيغ في القرآن لكن محورها واحد، وهو ان السؤال يدور في ذهن جميع البشر وليس قاصرا على مؤمن وغير مؤمن، رجلا كان أو امرأة، بما ان الله قد وضع هذا التساؤل على لسان "الإنسان" بصفة عامة: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا} (مريم 66)، أي يخرج من الدنيا ! نعم، الروح ومعها النفس تخرج حية من الدنيا بعد انفصالها عن الجسد لأن الروح لا تموت.

ونطالع مشهدا في سورة "المؤمنون" يشرح بمزيد من الوضوح فكرة الذين لا يؤمنون بالآخرة، فلو رحمهم المولى وكشف ما بهم من ضر للجو في طغيانهم يعمهون. ويقول سبحانه {وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَنْصَرِعُونَ (76) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (77)}. أي أنهم

سكتوا ويئسوا من رحمة الله وندموا. {بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ (82)}. .

وهو ما نخرج به من أن التساؤل سواء أكان حول البعث، بمعنى الانتقال فور الوفاة الى العالم الآخر أو العودة الى الأرض في "خلق جديد"، أي في تجسد جديد، يعد كفرا. وصدق ربي حين قال {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ}، وذلك لعدم درايتهم أو تشبثهم بأرائهم وعدم التفكير والتدبر في مختلف معاني القرآن الكريم كما أمرنا ربنا في العديد من الآيات.

وإذا تأملنا نفس الموقف تقريبا في سورة البقرة: {وَإِذْ قُلْنَا يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذْنَاكَ مِنَ الصَّاعِقَةِ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} (55 و56)، لفهمنا بوضوح معنى آخر من معاني البعث. فالمعروف علميا ان الصاعقة حين تضرب شخصا يموت لا محالة من الشحنة الكهربائية الضخمة التي تصيبه. وهو ما حدث لقوم موسي. ثم بعثهم الله من بعد موتهم من الصاعقة. أي ان الله احياهم بعد موتهم وأنهم نفس الأشخاص. ومن الواضح حتى دون ان تكتب كتابة في نص القرآن أنهم بُعثوا الى الحياة إذ احياهم المولي في نفس جسداهم، بما ان الموقف يتواصل ولم ينتهي بموتهم، فالكلام موجه لهم من قبل ومن بعد الصعقة. وهي صورة أخرى من صور البعث. إذ يواصل المولي عز وجل: {لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (56) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوٰ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57)}. أي إن الله قد أراهم الموت والحياة في تجربة واحدة ليقنوا.

والفرق بين المشهدين إن الله قد جنَّب موسي تجربة الصعق وجعلها تسقط على الجبل الذي خر صعقا. أما قوم موسي فقد فرض الله عليهم أن يعيشوا تجربة الموت صعقا وأحياهم لعلهم يؤمنون ويشكرونه على كل ما أنزله عليهم من نعم.. لكن ظلمهم لأنفسهم كان أكثر تأصلا من إيمانهم بالله سبحانه وتعالى.



## الفصل الثاني

- . الخلق
- . الحياة
- . الموت
- . الشيطان والجان
- . الروح والنفس
- . القلب والعقل
- . السماء والسموات

## الخلق

كلمة "الخلق" ترمز في حد ذاتها إلى نهاية الخواء والفوضى في فراغ الكون، الفراغ الأول السابق على مرحلة الخلق، في زمن لم يكن فيه النظام قد تم فرضه على عناصر العالم الشاسع في عملية تنسيق وتنظيم مبدعة، قادتها طاقة كبرى، لا مثيل لها، طاقة من نور على نور، هي طاقة الله وقدرته سبحانه وتعالى.. وعملية الخلق في حد ذاتها وبأوسع معاني الكلمة هي الطاقة والقدرة الواجدة والمشكلة للمعطيات الأولى لهذا الكون الممتد بقدرة الله سبحانه وتعالى.

ويوضح لنا القرآن الكريم أن الله جل شأنه قد بدأ بخلق الأرض جميعها، بكل ما تحمل من أجل الإنسان. ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، ومن الأرض مثلهن. أي ان هناك سبع أراضي، سواء أكانت متداخلة بدبذبات مختلفة، أو مترابطة في الفضاء ولا نعرف عنها شيء بعد. وجعل الظلمات والنور: الشمس ضياء، والقمر نور، وقدره منازل لنعلم عدد السنين والحساب. وهما، الشمس والقمر، والنجوم مسخرات بأمره. وحدد عدة الشهور اثنا عشر شهرا يوم خلق السماوات والأرض. كما أنه {وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (النحل 8). أي ان هناك يقينا مخلوقات أخرى لا نعلم عنها شيئا..

وأنزل من السماء ماء فأخرج به الثمرات رزقا لنا، وسخر لنا الفلك لتجري في البحر بأمره. كما سخر لنا الأنهار وخلق كل دابة من ماء: فمنها من يمشي على بطنه ومنها من يمشي على رجلين ومنها من يمشي على أربع. كما خلق سبحانه وتعالى من الماء بشرا، وصوره فأحسن صورته، وجعله نسبا وصهرا. وخلق لنا من أنفسنا أزواجا لنسكن إليها وجعل بيننا مودة ورحمة.

ولقد خلق الله السماوات والأرض بالحق. بل يقول سبحانه: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِيبِينَ}. أي ان هناك غاية وهدفا لما خلق. كما خلق السماء بغير عمدٍ نراها، وجعل الجبال أكنانا والقي بها في الأرض رواسي أن تميد بنا. وهنا لا بد لنا من وقفة نتناول فيها عبارتي السماوات "بغير عمدٍ نراها" و "إلقاء الجبال في الأرض". فإن كانت السماء أو السماوات تبدو لنا مرفوعة فوقنا بغير أعمدة نراها بأعيننا أو بأجهزتنا، فذلك لا يعني أنه لا توجد هناك أية روافع لها، لكننا لا نراها ولا ندركها، كالعديد من الأشعة التي لا تراها العين أو حتى الأجهزة المتخصصة. فقد اكتشفت ناسا، المؤسسة العسكرية الأمريكية، شعاعا أخضرا يمتد من الكعبة إلى أعماق السماء وأبعادها. ولم تتمكن أجهزتها من التوصل الى نهاية ذلك الشعاع .

وعبارة إلقاء الجبال "في" الأرض، وليس عليها أو فوقها، يعني أن الجبال تغوص تحت سطح الأرض. وهو ما أثبتته العلم الحديث موضحاً أنه لولا الجبال، التي تعلو سطح الأرض، فهي في الواقع عبارة عن أوتاد لتثبيت قشرة سطح الأرض التي نعيش عليها، لمالت هذه القشرة وتحركت وانزلق كل ما عليها! لذلك قال رب العزة أن {أَخْلَقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (غافر 57). بل لقد أوضح عز وجل أنه {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ} (الشورى 29). ومن الواضح أن عبارة "ما بث فيهما" أي في السماوات والأرض، أنه قد بث فيهما أنواع من المخلوقات المتنوعة شكلاً وموضوعاً، مثلما بثه على الأرض. فكلمة "الدواب" تشمل الإنسان والحيوان، وهو ما يتعين على الإنسان أن يدرسه علمياً ليفهمها خاصة فيما يتعلق بالسماوات.

والله الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، قد خلق السماوات والأرض بالحق، بحساب شديد الدقة. وراح يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمى، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه. وأوضح سبحانه أنه في اختلاف الليل والنهار وكل ما خلقه في السماوات والأرض عبارة عن بلاء ابتلى به الإنسان ليعلم أننا أحسن عملاً، موضحاً لنا أنه في اختلاف الليل والنهار وكل ما خلقه في السماوات والأرض عبارة عن آيات علينا أن نتدبرها ونفهمها. فهو القائل سبحانه وتعالى :

{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (البقرة 164).

فالمفروض على الإنسان أن يتأمل ويتدبر كل هذه الآيات والمعجزات المحيطة به ليفهم حقيقة هذا الكون الذي أوجدنا فيه. فذلك هو الكتاب المفتوح الذي يجب قراءته وفهمه إلى جانب الكتاب المسطور، الذي هو القرآن الكريم، لنعي معنى الحياة ومعنى وجودنا على هذه الأرض وسببه.

ويعلمنا القرآن الكريم أن الله هو خالق كل شيء وأنه على كل شيء قدير، وعلى كل شيء وكيل. فهو الخالق البارئ المصور الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم. إذ خلقه من روحه، وخلقه بيديه سبحانه وتعالى (ص 72 و75). فله الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. أي أنه سبحانه طاقة مطلقة لا نهائية القدرة والمقدرة. طاقة من نور على نور. لا يمكن تحمل وقعها.

وبخلاف الأسماء الحسنی الواردة في القرآن الكريم والصفات التي ترتبط بمضمون الآيات والسور وكل ما تضمنته من توجيه ومعلومات متعلقة بحياة الإنسان في الدنيا والآخرة، نطالع وصفان متكاملان يعطيان للإنسان فكرة مبسطة عن طاقة الله وقدرته في كل من آية الكرسي (البقرة 255)، حيث التأكيد على القدرة المطلقة المبدعة لكل شيء؛ وآية النور (النور 35)، حيث التأكيد على الطاقة المطلقة. فعبارة الله نور على نور، حين تجلى سبحانه للجبل دكه دكا، وخر موسي صعقا. ولما أفاق أدرك قدرة وطاقة الخالق سبحانه وتعالى .

وذلك إضافة الى آيات سورة "الحشر" التي توضح لنا تطبيقا عمليا لتداخل الطاقة المطلقة والقدرة المطلقة لله سبحانه وتعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۗ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۗ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۗ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)}. فهو عالم الغيب والشهادة، المهيمن على كل شيء فهو طاقة و قدرة وحكمة على الإطلاق.

والله هو الذي خلقنا والجبلة الأولين الذين من قبلنا، خلقنا من تراب، خلقنا من طين لازب، ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده، لقد خلقنا من نفس واحدة وخلق منها زوجها ليسكن اليها، أي ليستكين اليها، وبث منها رجالا كثيرة ونساء، وكان ترتيب الخليقة كما يوضحه عز وجل أنه خلقنا من تراب ثم من نطفة ثم من علقه، ثم يخرجنا من بطون أمهاتنا طفلا، ثم نبلغ أشدنا ثم نكون شيوخا. ومنا من يتوفى من قبل، أي قبل الشيخوخة أو قبل أي مرحلة من المراحل، ونبلع أجل مسمى. أي أنه يخلقنا ومنا من يتوفى صغيرا ومنا من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا. وهو ما يطلق عليه العلم الحديث أمراض الشيخوخة.

أي ان الله عز وجل قد خلقنا من نفس واحدة، من صلصال من حمأ مسنون. يخلقنا في بطون أمهاتنا خلقا من بعد خلق، فكل مرحلة هي خلق جديد بالنسبة لما قبلها، وذلك في ظلمات ثلاثة. وكل مرحلة من مراحل تكوين الجنين هي بالفعل بمثابة خلق جديد. وهو ما نطالعه بوضوح في سورة "المؤمنون":

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۗ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)}. ولو انتقلنا الى سورة "فصلت" (21) لأدركنا كيف ان عملية الخلق تتواصل، وان الخلق وإعادة الخلق لنفس الروح يتواصل ويتكرر الى ان ترقى النفوس وتتقدم: {وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ۗ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

وَالْيَهُ تَرْجَعُونَ} وفعل خَلَقَ هنا بصيغة الجمع، أي أنه لا يقصد آدم عليه السلام، وإنما الحديث هنا عن بشر بالجمع، عن يوم يُحشر أعداء الله إلى النار وشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وهو ما يؤكد أن البشر يُخلقون أكثر من مرة.

وقد فسر العلماء الظلمات الثلاثة بأنها ظلمة كيس الجنين، وظلمة الرحم، وظلمة البطن. وما تحمل من أنثي ولا تضع إلا بعلمه سبحانه وتعالى، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ولسبب يعلمه رب العالمين. فالبداية والنهاية المتعلقة بكل إنسان محددة مسبقا. فقد خلق الموت قبل ان يخلق الحياة، وهو ما يوضح لنا ان الحياة الدنيا مجرد فترة محددة مسبقا. وهو ما نطالعه في سورة الملك .

كما ان الله سبحانه وتعالى قد خلقنا وقد حدد ما علينا عمله في هذه الدنيا. أي أنه قد خلق كل إنسان لرسالة أو لمهمة بعينها، محددة مسبقا، وعلى ذلك الإنسان ان يتوصل إليها ويؤديها لكيلا تضيع حياته لهوا ولعبا في هذه الأرض الدنيا. وقرر لنا مصيرنا بوضوح، فبعد خلقنا وتأدية رسالتنا نموت وتُبعث أحياء إلى العالم الآخر. أي ان عملية الموت ليست إلا بوابة انتقالية من مجال إلى مجال آخر، أو من حياة إلى حياة أخرى، فالحياة في الآخرة هي الحيوان، أي الحياة الحقيقية المتواصلة في عالم الروح.

ومن رحمة ربنا بنا، سبحانه وتعالى، أنه أوضح أن تكليف الإنسان يتم وفقا لقدرته وهي قدرة الروح التي من أمر ربي: {لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} (الأنعام 152)؛ ثم يتجلى كرمه سبحانه ورحمته أنه حتى هذا التكليف لن يكون صارما قاطعا وإنما وفقا لما أتاه ومنحه فعلا من إمكانيات لتلك النفس: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} (الطلاق 7) . أي إن الحساب سيكون وفقا لما أتاه الله لهذه النفس من إمكانيات في الحياة الدنيا.

ومن الواضح أن التكليف يصدر للنفس، وفقا للطاقة والقدرة التي يمنحها لها الخالق. والطاقة هي قدرة الروح المستمدة أصلا من روح الله سبحانه وتعالى (ص 72).

وما أكثر الآيات التي تنفي الشرك بالله وتفنده بالعديد من الأدلة والبراهين، ومنها: {قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا} قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَفُوا وَخَلَفَهُ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ} قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} (الرعد 16) ؛ {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا وَأَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا} (الفرقان 2 و3) ؛ {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} (يونس 34) ؛ {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} (النحل 20) ؛ {اللَّهُ

يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (الروم 11) ؛ {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَآئِذَا بُرْهَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (النحل 64).

وأكثر ما يلفت النظر في هذه الآيات بخلاف إثباتها وحدانية الله وتفرده وإدانة الشرك به إدانة قاطعة، نطالع تكرار عبارة: "يبدأ الخلق ثم يعيده"، وان كلمة "الخلق" جامعة شاملة لعملية خلق الإنسان وان الله يخلق الإنسان مرات ومرات، ثم نعود اليه. وهي إشارة واضحة لإعادة خلق الإنسان بمعنى إعادة تجسده وإشارة مؤكدة الى عودته الى الله للحساب والجزاء.

## الحياة

توضح لنا سورة "الملك" في بدايتها أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الموت قبل الحياة. وكما نعلم فإن ترتيب الكلمات في نص القرآن له أهميته وألويته: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَكْبَرًا أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (2)}. وكأنه بذلك سبحانه يحدد لنا أمران بخلاف أن "بيده الملك"، وهما: أن الموت حتمي، وأن الحياة على الأرض موقوتة بفترة محددة مسبقا، لأن من صفات الله عز وجل أنه يحيى ويميت. وقد تكررت هذه المعلومة بمختلف الصيغ التي تتيحها اللغة العربية، وأنه ابتلانا بالحياة والموت ليعرف أيُّنا أحسن عملا. فهي إذن قضية محسومة، محددة المعالم ببساطة ووضوح.

وتبدأ معرفتنا بمشوار وجودنا على الأرض بقصة آدم وزوجته وطردهما من الجنة لأن الشيطان قد أغواهما وأزلهما. وهنا ندرك ضمنا أن الإزلال ملاصق للغواية والإغراء. فقال المولى عز وجل: {أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ} (البقرة 36). وهي آية تحدد بوضوح أيضا أن الطرد جماعي لآدم وزوجته والشيطان، وأن الوجود على الأرض فيه استقرار ومتاع الى حين، غير أنه استقرار قائم على العداوة والصراع. وهو الملمح الذي يتعيّن علينا أن نقاومه وألا ننع فيه، نقاومه ونقوم بتقويمه.

ولو تأملنا الكلمات الثلاثة المتتالية: نقاومه ونقوم بتقويمه، للاحظنا تكرار حرف القاف في كلٍ منها. والقاف تعد من أمتن الحروف وأصحها جرسا، ومخرجها من عكدة اللسان وبين اللهاة في أقصى الفم، ويحتاج لشيء من الجهد في الحلق لنطقه. وفعل قوم يعني أزال عوجه، وتقويم الشيء يعني استقامته. فذلك الاستقرار في الدنيا القائم على العداوة والصراع، علينا ان نقاومه ونبذل الجهد لنقوم بتقويمه.. وأقوم الحالات هي توحيد الله.

ونطالع في سورة "طه" معلومة إضافية أو مكملة لقصة آدم وطرده من الجنة، تتضمن التحذير وما كان الله قد وعده لآدم من استقرار كريم في الجنة، استقرار يكفل له المأكل والملبس والعيش بقناعة راضية بعيدا عن معاناة لفحة الشمس وحرها: {فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (119)}.

فوسوس اليه الشيطان قائلا: {يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى} (طه 120). ويتجلى الإغراء المادي اللا محدود أمام أعين آدم، بديلا عن ذلك الاستقرار الكريم المحدود المتعة والماديات، الذي عرضه الله عليه في الجنة. فالعرض الإلهي تضمن العيش الكريم وألا يجوع ولا يعطش ولا يتعري ولا يتعرض لحرارة الشمس ولفحها.. أي ان الله قد عرض عليه حياة الستر، أما الشيطان فقد عرض عليه الخلود ومغرياته. أي أنه لن يموت أبدا، إضافة إلى امتلاك مُلْكٍ لا حدود ولا نهاية له. وهو ما يمثل قمة التمسك بالملكية والماديات والاستحواذ وطمع البقاء في هذه المغريات الى ما لا نهاية. {فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى} (طه 120). وبذلك أصبحت عملية الطرد من الجنة واجبة نتيجة الاختيار، اختيار الغواية والطمع في حياة وملك لا يفنيان..

فقال رب العزة: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (12)} (طه). واللافت للنظر هنا أن المثني قاصر على آدم وزوجته، أما النزول الى الأرض فمتعلق بثلاثتهم جميعا، أي بآدم وزوجته والشيطان. وهو ما يوضح لنا أن هناك فرق في التكوين وفي الرسالة بين آدم وزوجته من جهة والشيطان من جهة أخرى. فآدم من حمأ مسنون وبالتالي زوجته أيضا، أما الشيطان فمن نار لا نعلم تفاصيل تكوينها. وهناك اختلاف في الرسالة فآدم وزوجته عليهما إعمار الأرض وتطويرها، أما الشيطان فعليه الغواية وإبعادهما عن تلك الرسالة. كما أنه قد خُلِقَ قبل آدم وتم طرده من السماء ومُنِعَ من الوصول إليها ثانية. فقد أعد الله له ولأمثاله مصابيح في السماء الدنيا ترجمهم وتمنعهم من الوجود في السماء.

وهنا نلاحظ دلالة جانبية توضح لنا ان المصباح، وهو يحمل أو يتضمن معنى النور ضمنا يمكن أن تؤدي شدة وهجه الى الحرق والاحتراق. وهي إشارة رهيبة الى قوة النور، وخاصة نور الله حين تجلى للجبل أمام موسى فدكه دكاً وخر موسى صعقا. وهو ما يفسر لنا كيفية منع الشيطان من الاقتراب من السماء الدنيا.

ولا نعلم ما الذي قامت به الشياطين لكنهم منعوا من الاقتراب من السماء الدنيا. وفي أواخر سورة "الشعراء"، عند الحديث عن تنزيل القرآن، نطالع: {وَمَا نَنْزَلُ بِهِ الشَّيَاطِينَ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ

(211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُؤُونَ (212). وعقابهم كان أنهم أصبحوا معزولين عن السمع. وهو ما يشير من ناحية أخرى الى أهمية الاستماع الى تلاوة القرآن. قد كانوا يستمعون الى قرآن عجا: {يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3) وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا} (الجن). والباعث إلى العجب والتعجب أنه حتى الشياطين يرفضون الشرك بالله !

وعودة الى قصة طرد آدم من الجنة ووجودنا على الأرض ضمنا، ندرك أن هذا الوجود نتيجة العصيان على الرضا وعلى الاكتفاء بالعيش الكريم من أساسيات الحياة، ومن جهة أخرى تلك العداوة المتأصلة التي فُرضت على جميع الأطراف، وقد بدأت بآدم وزوجته والشیطان. لأن اللافت للنظر في هذه الآية صيغة المثني لآدم وزوجته، وصيغة الجمع لثلاثتهم. وذلك لا يعني أن العداوة فرضا ليست موجودة بين الأطراف الثلاثة فحسب، بل هكذا تبدو: أنها الخط الأساس المشترك بين الجميع كمحك لاختيار الصواب أو الوقوع في الخطأ بناء على الاختيار الخطأ.

وفي نفس قصة الطرد من الجنة نطالع آية خاطفة متعلقة بآدم: {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} (طه 122). وكأنها استبعدته من القصة لنجد أنفسنا أمام الآية التالية، وكأنها تتضمن دستور الحياة لبني آدم والشیطان الذي له عالمه أيضا: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)} (طه).

وقبل أن ننقل الى ذلك الهدى الإلهي المتمثل في تنزيل القرآن الكريم، نشير الى آية سابقة تستكمل لنا قصة آدم: {وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} (طه 115). والعزم هو الجد، أي ما عزم عليه القلب من أمر وجب فعله. فلا خير في عزم بغير حزم. كما تأخذ أيضا معنى الصبر. أي ان آدم لم يصبر على الرسالة التي كُلف بها ولم يكن حازما في تنفيذها.

وهنا لا بد من الإشارة ثانية الى ان الوجود في الحياة الدنيا هو لفترة محددة، وذلك ما يتعين علينا أن نتذكره دوما لكيلا ينسلت الوقت منا دون أن نشعر. وان نتذكر أن لنا في الأرض مستقر ومتاع الى حين، كما طالعناه في سورة "طه". ولقد تكرر نفس هذا المعنى في سورة "البقرة": {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} (آية 36) ؛ كما تكرر في سورة "الأعراف" أيضا وبنفس الصيغة: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} (آية 24). وهذا الاستقرار والمتاع أو حتى المتعة فهي موقوتة الى حين، يبلونا فيها المولى بالشر والخير، وكلاهما بلاء كما حددها عز وجل، ليرى أينا أحسن عملا.



وما أكثر الآيات التي تدلنا على ان الحياة الدنيا ليست إلا متاع الغرور، وان ما هي إلا لعب ولهو وتفاخر بين الناس بعضهم بعضا، وتكاثر في الأموال وفي الأولاد. أي انه متاع ضحل عابر ولا يقارن بما ينتظرنا في الآخرة، بناء على أعمالنا واختياراتنا. وينصحننا المولى عز وجل بوضوح ألا نتطلع الى ما في أيدي غيرنا من خيرات، هي في واقع الأمر أشياء يعذب بها الله أصحابها: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ} (البقرة 55). فامتلاك ماديات الدنيا هي عذاب لأصحابها وعادة ما تدفعهم الى سوء الاختيار، فتزهق أنفسهم وهم كافرون دون أن ترقى وتتقدم.

وما أبسط وأوضح المنهج الذي أمدنا به الله عز وجل لنجتاز تجربة الوجود على الأرض بسلام. فقد أوضح لنا في القرآن الكريم أنه علينا ان نستيق الخيرات، أن نؤمن بالغيب يقينا ونقيم الصلاة وننطق مما رزقنا، والإنفاق هنا شامل لكل ما نحصله من علم ومعرفة وماديات. وأن نأكل مما في الأرض حلالا طيبا، وألا نتبع خطوات الشيطان، فهو لنا عدو مبین، يأمرنا بالسوء والفحشاء. كما يجب أن نتوخى الحيطة وألا نقول على الله ما لا نعلم. أي ان الله قد وضع لنا دستورا واضحا للحياة الدنيا، نسير فيها بمقتضاه، حتى نجتازها بسلام. وحدد لنا الحلال والحرام، والصواب والخطأ، والممكن والمتاح والممنوع المحرم علينا. وترك لنا حرية الاختيار. وهذا الاختيار عليه ان يعاوننا على ان نحطات ونتقي يوما نرجع فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت..

ومثلما أعطانا المولى دستورا واضحا محددنا نسير بمقتضاه في الحياة الدنيا ومادياتها، دستور لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أوضحها وفسرها لنا ووجهنا بمقتضاه، أعطانا دستورا آخر خاص بالتقدم النفسي والروحي لنرقى بهما ونتقرب اليه سبحانه. فأوضح لنا كيف نستعين بالصبر والصلاة، وكيف نهتم بالدعاء والتسبيح قبل طلوع الشمس وبعد شروقها، وقبل غروب الشمس وبعد غروبها، بخلاف ما يمكننا تأديته أثناء الليل من اجتهاد وتهجد. بل لقد أمدنا بما يمكن أن ندعوه به وما يمكن أن نسبح به تسبيحا. فترويض النفس على الهدوء والسكينة، وعلى تسليم الأمر لله بكل ثقة واطمئنان، هي المهمة الصعبة التي يتعين على الإنسان ان يعيش بها ويجتازها في هذه الدنيا.

لذلك طالبنا المولى سبحانه بالعفو: أن نعفو عن بعضنا البعض، فالعفو أقرب الى التقوى، وألا ننسى الفضل بيننا. أن نعفو ونصفح وتغفر وأن نستغفر لمن ظلمنا هو خير علاج للنفس ولاستبعاد السلبيات التي تضرنا، لكي يغفر الله لنا.. وما أكثر الآيات التي تشرح لنا قيمة العفو، فهو خير ما ينفقه المسلم لأخيه. أن نعفو ونأمر بالمعروف ونعرض عن الجاهلين وان نكظم الغيظ ونعفو عن الناس. أن نصفح الصفح الجميل، ونزرع ما في صدورنا من غلٍ يعكر صفاء النفس. لذلك يقول سبحانه وتعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} (البقرة 219). وهو منهج أبعد ما يكون عن صراعات الدنيا ومشاحنات

مادياتها ويضعها في نطاق مكانها المحدود. إنه منهج روحي، قائم على تهذيب النفس ومحاولة إيجاد صلة عبادية مباشرة بيننا وبين العالم الحق .

ومحاولة السعي الى سكينة النفس والسمو بها أو التقرب الى عالم الغيب هو ما تحاول العلوم الحديثة سواء الروحية أو حتى التراثية القديمة ان تعلمه للإنسان بمسميات مختلفة. فالتأمل وضبط التنفس وتكرار كلمة بعينها كالمانترا في اليوجا مثلا، لتركيز الانتباه عليها، ما هي إلا مدارس لاستشفاف الطريق الروحي والتقرب الى الله. ومنها فلسفة ال "طاو" الصينية، و"التاي شي" وال"لين" و"الياتج" .. وقد كان القرآن سباقا في أن علمنا كيفية التسبيح باسم الله، والتسبيح باسمه الأعظم، وان نسبح بأسمائه الحسنى وندعوه بها. فهي صفاته التي وصف بها نفسه. وأن نسعى الى ذلك بالسكينة والمواظبة، وخاصة سكينة النفس المطمئنة .

فعلى الإنسان أن يتسلح بهاذين الدستورين، كيفية السلوك في الدنيا وكيفية العروج الى عالم الملكوت. الدستوران اللذان منحهما لنا الله لنجتاز الحياة الدنيا ونتفادى بفضلهما لحظة الوقوف أمام جهنم ونتذكر أعمالنا.. وأنى لنا الذكرى.. فحينئذ تقول النفس نادمة: {يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} (الفجر 24).. وهي عبارة شديدة التركيز، كاشفة لحقيقة فاصلة بين الحياة الدنيا المحدودة، وبين حياة ممتدة، وصفها المولي عز وجل بأنها "الحيوان"، أي الحياة الحقيقية التي ستتواصل بالنفس والروح معا.. مشوارا أبعد ما يكون عن ماديات الدنيا ومغرياتها التي لا نهاية لها ولا آخر، وهي ماديات لا إستمرارية لها بما أنها فانية، فالحياة الحقيقية تبدأ بعد تجربة الدنيا..

## الموت

الموت يعني النهاية المطلقة لشيء يقيني الوجود، كالإنسان والحيوان والنبات، بل والجماد أيضا بحكم أنه يتحلل مع الوقت. فحتى ما نطلق عليه "الجماد" له بداية ونهاية وله دورته الحياتية، بما ان كل شيء في الوجود مكون من ذبذبات مختلفة الضغط والإيقاع، وإلا لما قال الله في كتابه: {فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} (البقرة 24)، أو {فُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} (التحریم 6). أي ان الحجارة أيضا سوف تحاسب وتمر بتجربة العذاب بالنار. وسوف يتعامل الله معها وحييا. فالوحي هو أحد وسائل الاتصال من الله عز وجل الى كل مخلوقاته .

فلقد أوحى الى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتا؛ وأوحى الى كل سماء أمرها؛ وأوحى للأرض أن تنزل زلزالها. مثلما أوحى الى نوح والنبیین من بعده. وأوحى الى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يتبع ملة إبراهيم حنيفا، وأوحى الى الناس فعل الخيرات ونزع الغل من صدورهم..

والموت هو النهاية المطلقة لمرحلة التجسد أو الوجود المؤقت على الأرض. ويمكنه أن يصيب معنويا بعض المجالات المتعلقة بالإنسان كالصداقة والسلام، أو حتى حقبة زمانية ما. أي أنه يشير الى نهاية تطور الكائنات الحية والى توقف كينونتها. لكن هذه النهاية الحتمية هي نفسها بوابة العبور الى عالم الغيب، أي الى ما يطلق عليه عن عدم دراية: "المجهول". فذلك المجهول قد أوضحه لنا رب العزة في كتابه الكريم بدرجات متفاوتة الوضوح والمعني والأبعاد.

ولو تأملنا عدد الآيات الواردة في القرآن حول الموت ومعانيه وأشكاله ومراحل لاندھشنا من كيفية عرضه وشرحه للبشر حتى يدركوا أنه مجرد مرحلة انتقالية متعددة الأوجه، تجربة متنوعة الأركان. فقد شرح لنا عز وجل كيفية الابتلاء به، وأجله، وأنه يعني إخراج الحياة من جسم الإنسان، واستحالة دفعه عتًا، وانتهاء عمل الإنسان بوقوعه، وأن الموت مقدر من الله لأنه خلق الموت قبل الحياة (الملك 2)، وأنه من رحمته بنا أن يجهل الإنسان زمن وقوعه، وشموله لكل نفس، بل وشموله حتى للأنبياء والرسل. كما شرح لنا سبحانه وتعالى غشيته وغمرته وتعدد أنواع الموت. فهناك الموت على الإسلام، والموت على الكفر، والموت في سبيل الله، كما حدثنا سبحانه وتعالى عن الموت والتوبة، والموت والرحمة أو حتى الموت والكلام، بل والموت غيظًا..

ومن اللافت للنظر ملاحظة تلك الأهمية المضافه على الموت، وأن الله قد خلق الموت قبل الحياة، لأن الموت لا يقل أهمية عن الحياة بل أنه ضروري لتستمر الحياة. فالنظام الكوني يؤكد أن كل شيء له بداية ونهاية، وأن خلايا أجسامنا فيها برنامج يتحكم في عمر الخلية وانقسامها وموتها. وهو ما تؤكد الآية الواردة في سورة "العنكبوت" (57): {كُلُّ نَفْسٍ دَائِقَةُ الْمَوْتِ}.

ويوضح لنا القرآن الكريم كيف أن الموت حتمي، واستحالة دفعه، فالإنسان لا يملك منعه وإنما الله هو الذي يحدده لأنه شامل لكل ما هو على الأرض. ولم يجعل الخلد لأي من البشر، ولا حتى الأنبياء والرسل. وإن كان الموت يحررنا من آلام ومعاناة وهموم الدنيا إلا انه في نفس الوقت يفتح لنا مجال الروح والحياة الروحية، أي مجال الحياة الحقيقية. فالموت بمثابة قطع فاصل بين الحياة الدنيا وآفاق السماوات السبع وغيوبها التي يتعين علينا أن نستكشفها وندرسها..

كما يوضح لنا القرآن الكريم نفيه عن الله سبحانه وتعالى، فهو حيّ قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، وان كل ما عليها فإن ولا يبقى إلا وجه ربنا ذو الجلال والإكرام. كما أشار القرآن الكريم الى نفيه عن الآخرة لأن الروح لا تموت بحكم أنها جزء من روح الله: {إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى} (طه 74). أما المتقين: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} (الدخان 56). وعبرة "الموتة الأولى" هنا تؤكد أن هناك موتات أخرى في دورة حيوات النفس على الأرض، في تجسيدات تالية.

وقد يعجب المرء حين يطالع آية تؤكد أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الموت قبل الحياة، فترتيب الكلمات في القرآن له أهميته. فهو القائل سبحانه: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} (2) (الملك). أي أنه قدره تقديراً، فهو يحيى ويميت ويخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحيّ، وإليه يتم رجوعنا جميعاً. أي ان كل نفس ذائقة الموت، وان الله يبلينا بالشر والخير فتنة لنا واختباراً لعلنا وصبرنا، ثم يُرجعنا اليه. ومثلما لا نملك ساعة المجيء الى الأرض، لا يملك الإنسان لحظة الخروج منها، إذ نطالع بوضوح: {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ} (الأعراف 25)، أي يتم إخراجنا بالأمر والتكليف منه سبحانه وتعالى.

وللموت عدة معاني فهو يحررنا من القلق والألام والمعاناة والهموم الدنيوية، كما أنه يفتح لنا في نفس الوقت مجال الحياة الحقيقية، وإلا لما قال عز وجل: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِِيَ أَحْيَاوَانٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (العنكبوت 64). و"الحيوان" هنا تعني الحياة الحقيقية، دار الحياة الدائمة. فالموت هو بمثابة قطع فاصل بين عالمين، بين الحياة الدنيا وكل ما بها من موار وتجارب؛ والحياة الحقيقية، الحياة الدائمة المستمرة، حياة السماوات السبع وأفاقها التي تتواصل فيها الحياة بعد ان ينزع الله الغل من نفوسنا (الأعراف 43) و (الحجر 47) ..

والموت حتمي، لا يملك أي كائن دفعه، بما ان الله سبحانه وتعالى قد خلق الموت قبل الحياة. وهو الذي يحيى ويميت، ولم يجعل الخلد لأي بشر، وأن كل نفس ذائقة الموت، وأينما نكون يدركنا الموت وإن كنا في بروج مشيدة. كما أنه يوضح لنا أنه ما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت. فالله وحده عنده علم الساعة، والساعة تشمل كافة خلقه ومخلوقاته. فلكل كائن حي ساعته، كما أنه لكل أمة ساعتها وأجلها، لكنه يؤخرهم الى أجل مسمى. فما من قرية إلا هو مهلكها قبل يوم القيامة أو معذبها عذاباً شديداً، {كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} (الإسراء 58). ففيها نحيا وفيها نموت ومنها نُخرج. والخروج هنا ليس بأبدينا وإنما يقع علينا، يُفرض علينا في حينه بفعل أمر إلهي. والخروج يتبعه النشور والرجوع الى الله.

والنشور بمعنى إحياء الميت ليعود روحا ونفسا الى خالقه. وكأن لحظة الموت هي نفسها لحظة الانتقال من مجال الى مجال، من مجال الدنيا الى مجال الآخرة ليبدأ المشوار في عالم الروح.

وهنا ننتقل الى مرحلة أخرى من ملامح الموت/الحياة، وكأنهما وجهان لعملة واحدة، أو مرحلتان متواصلتان، وهو ما نطالعه في ذلك الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. ويوحى سبحانه وتعالى الى الرسول الكريم: {وَلَيْنَ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ} (هود 7). ولا يتوقف استنكار البشر أو المشركين عند هذه الآية بل يتلاحق الاستنكار :

\* {أَيُّدًا مِثْنًا وَكُنَّا ثُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ} (ق 3) ؛

\* {قَالُوا أَيُّدًا مِثْنًا وَكُنَّا ثُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (83)} (المؤمنون) ؛

\* {أَيُّدِكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ ثُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ (35) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37)} (المؤمنون) ؛

\* {أَوْآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (48) قُلْ إِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (49) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (50)} (الواقعة)؛

\* {إِذَا مِثْنًا وَكُنَّا ثُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوْآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (18)} (الصفات).

أي إن الإنسان يتم خلقه ليعيش فترة محددة، موقوتة البداية والنهاية، ومتروك فيها للإنسان أن يتصرف وفقا لاختياره مما حدده المولى عز وجل في القرآن من فروض وواجبات وحلال وحرام، وصواب وخطأ. إذ إن عملية عرض الشيء وعكسه تمنح الإنسان في نفس اللحظة حرية بل حتمية الاختيار لتتم المحاسبة يوم الحساب الذي لا نقاش فيه. فإن الساعة آتية لا ريب فيها لأن الله يبعث من في القبور لتتواصل الحياة بشكل آخر.

{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (42)} (الزمر). وكان الأصل أو الطبيعي أن يموت الإنسان وهو نائم، ومن لم يمت في منامه يعود للحياة اليومية إلى أجل مسمى ليتوفاه ملك الموت المكلف به في الموعد

وبالكيفية التي حددهما له المولى عز وجل. بل نطالع في سورة "الأنعام" بوضوح: { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ } (60)

وإن كان الموت ابتلاء للإنسان، فهو يُخرجه من الحياة وينتهي عمله بوقوعه، فمن حكمة الله عز وجل جهل الإنسان بلحظة وقوعه. فالموت واقع لكل خلق الله حتى الرسل والأنبياء. وكل شيء هالك إلا وجهه الكريم سبحانه. فأينما نكون يدركنا الموت ولو كنا في بروج مشيدة. كما لن ينفعا الفرار من الموت، فالموت الذي يتصور الإنسان أنه قد يفر منه غير مجدٍ فهو ملاقيه حتما، لا يستأخره ساعة ولا يستقدمه. فالله سبحانه وتعالى يحيينا ثم يميتنا ثم يجمعنا الى يوم القيامة بكل ما سوف يدور قبله أو فيه. فالموت مجرد بوابة نعبرها لننتقل منها إلى الحياة الحقيقية، حياة الروح التي لا تعرف الموت.

وقبل الانتقال الى نقطة أخرى من هذا البحث، نعود الى آية { فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ }. ولا شك في ان القارئ يتوقف متسائلا حول كيفية أو حتى داعي إلقاء الحجارة في النار. لكننا إذا انتقلنا الى آية 74 من نفس سورة "البقرة" لقرأنا: { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }.

وأول ما يلفت النظر هنا هو صيغة المذكر والمؤنث للحجارة، ونذكر منها أنها تتسم بنفس نسق خلق الإنسان من مذكر ومؤنث. كما نطالع ان الحجارة توصف أساسا بالقسوة بحكم تكوينها، وذلك يعنى ان ليس بها مشاعر أو أحاسيس رقيقة. وان منها ما يتدفق منه الأنهار ويخرج من بعضها الماء وغيرها يهبط من خشية الله. بل لو تأملنا آية سورة "البقرة" (74) للاحظنا اختلاف في أداة الإشارة "منه" و "منها": { إِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ } وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ } وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ }، فهي تبدو وكأن الحجارة عالم في حد ذاته، به المؤنث والمذكر وبه المؤمن والكافر. أي الذي قام بدوره في الحياة والمقصر في حق الله.

لذلك يمكننا ان ندرك بوضوح ان الحجارة تتبع نفس سنة الله في خلقه من مذكر ومؤنث، وأنها مكلفة بأداء دور معين عليها ان تؤديه في هذه الدنيا التي وجدت بها، وأنها سوف تحاسب على عملها هذا وعلى طاعتها أو عصيانها بما أنها سوف تُلقى في النار مثلها مثل البشر.

ومما يرجح هذا الاستنتاج هي الآية الواردة في سورة "التحريم" (6): { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }. أي ان

هذه النار لا فرار منها ولا مهرب، فالملائكة الغلاظ الشداد الذين يحرسونها لا يعصون الله ما أمرهم ويقومون بتنفيذ ما يؤمرون. وأن باب النجاة الوحيد هو عملنا الصالح والتزامنا وتمسكنا بكل تعاليم الله واختيار الصواب والحلال والممكن المتاح في كافة مواقف حياتنا.. بل علينا أن نصفح الصفح الجميل، وننزع ما في صدورنا من غلّ يعكر صفاء النفس، وأن ننفق من أهم ما نرجوه من الله لأنفسنا: أن ننفق من العفو لمن حولنا حتى ننتقل الى العالم الآخر بنفس مطمئنة. فالموت قد يأتي والناس نائمون أو نهارا وهم يلعبون.

## الشیطان والجان

وردت كلمة الشيطان في القرآن ست وثمانون مرة بتصريفات مختلفة، وإن كانت قد وردت كاسم معرّف ثماني وستون مرة. وقد حذرنا الله صراحة ألا نتبع خطوات الشيطان، وكررها بنفس الصياغة أربع مرات: مرتان في سورة "البقرة" ومرة في "الأنعام" والرابعة في سورة "النور". وذلك لأن الشيطان يأمرنا بالفحشاء والمنكر. والفحش والفحشاء والفاحشة هو القبيح من القول والفعل، وكل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي. وكل شيء جاوز قدره وحدّه فهو فاحش. كما يضلنا الشيطان ضلالا بعيدا ولا يعد الإنسان إلا الغرور، ويوقع بين الناس العداوة والبغضاء، وكان دوما للإنسان خذولا، يزين له أعماله ليصده عن السبيل: {وَمَنْ يَعِشْ عَنِ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)} (الزخرف).

والقرين في الحديث: ما من أحد إلا ووكل به قرينه، أي مصاحبه من الملائكة والشياطين. وكل إنسان فإنه معه قرينا منهما، فقرينه من الملائكة يأمره بالخير ويحثه عليه، وقرينه من الشياطين يأمره بفعل الشر، إلا أن كيد الشيطان كان ضعيفا. ورغمهما، لقد حذرنا المولى بوضوح: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} (فاطر 6). وكرر التحذير سبحانه صراحة: {وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (الزخرف 62).

وتنزلق النفس الأمانة بالسوء، تنساق خلف الوعود الكاذبة والمغريات وزخرف القول ومباهج الدنيا وسفاسفها حتى يذهب البعض إلى نسيان ذكر الله ويصبح من حزب الشيطان وأتباعه. وحينما يتخاذل الإنسان الذي في قلبه مرض، ويرتد على أدباره بعدما تبين له الهدى، يتجلى خبث الشيطان حينما يلح عليه ويرى انصياعه، وحين يكفر ويحيد عن الحق، يقول له الشيطان بكل خبث ودهاء: {إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} (الحشر 16)! الشيطان، الذي تحدى الله بأنه قادر على إغواء الإنسان ودفعه إلى تغيير خلق الله، "يخاف رب العالمين"! ويا له من دهاء..

بل يتزايد دهاؤه وجبروته المتعالي ليقول لمن انقاد لأوامره وإغراءاته: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي طَفَلًا تَلُوْمُونِي وَتَلُوْمُوا أَنفُسَكُمْ ط} {إبراهيم 22}. حقا، وبكل أسف، لا يجب أن نلوم الشيطان، على حد قوله، فالإنسان هو الذي ينساق بإرادته ليريق الوعود، والإنسان هو الذي يختار.

واللوم لا يقع عشوائيا أو بصفة عامة على من ينساقون خلف الشيطان، وإنما هناك تحديد لبعض الأنماط، ومنهم الذين يأكلون الربا، وكل أفاك أثيم، والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون باليوم الآخر، وكذلك المبذرون، والمستهزؤون بالدين، الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا: {إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} (البقرة 14). ويتكرر تحذير لمولى عز وجل: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ} {يس 60}. فالشيطان عدو للإنسان، كان ولا يزال عدواً مبيناً فقد خلقه الله من نار، وخلق سبحانه وتعالى الإنسان من روحه وصنعه بيديه (سورة "ص" آية 72 و 75). لذلك كان الشيطان عدواً مبيناً غيراً وحقداً، حتى وإن كان من بينهم بعض الذين يؤمنون بالله. فقد كان الشيطان لربه كفورا، بل كان للرحمن عصياً.

ومن الواجب هنا توضيح مختلف مسميات الشيطان وأصله. إذ لدينا في القرآن كلمات إبليس والجنّ والجِنَّة والشيطان والعفريت. والأصل فيهم الجنّ لأنهم أمم مثل أمم الإنس، ومرّت موجات من تلكما الأمم.. أما العفريت فهو أصلا من الرجال وتعنى: النافذ الأمر المبالغ فيه. فهو الداھي الخبيث الشرير، ومن كل شيء المبالغ فيه. وهو اسم صفة يسري على الإنس والجن.

ونطالع في سورة "الأعراف" (آية 38): {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ}. ونطالع أيضا في نفس سورة "الأعراف" (آية 179): {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}. كما نطالع في سورة "الإسراء" (آية 88): {قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَّا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا}.

وأصل كلمة جنّ تعني الستر عن الرؤية، وسُميَ بها الجن لاستتارهم واختفائهم عن الأبصار. ويبدو مما ورد عنهم في سورة "الأعراف" بعاليه أنهم في نفس تكويننا شكلا ولهم ملامح شبيهة بنا، إلا أنهم من مادة لا نراها فهي خارج حدود إبصارنا كالأشعة فوق البنفسجية والأشعة تحت الحمراء. فهي موجودة من حولنا ونستخدمها لكننا لا نراها، وغيرها كثير..



والعفريت من الجن، والجن ولد الجان. وإبليس من الجن أيضا لكنه سُمي كذلك عندما فجر وفسق عن أمر ربه، فقطع الرجاء ويئس من رحمة الله. أما الشيطان فهو كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس والدواب (لسان العرب).

ومن اللافت للنظر ان اسم الشيطان أكثر الأسماء ورودا في القرآن، إذ نطالعه ثمان وستون مرة، بينما ورد اسم إبليس أحد عشر مرة، والجن اثنان وعشرون، والجنّة عشر مرات. وكان العتوّ والتمرد هو أكثر التصرفات ترددا بين الجن والإنس.

والجن لا يعلمون الغيب ولم يدركوا ذلك إلا عندما توفى سليمان وهو واقف مستند على عصاه. إذ كانوا يعملون بين يديه بإذن الله، ولم يدلهم على موته إلا عندما راحت دابة الأرض تأكل منسأته {فَلَمَّا خَرَ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ} (سبأ 14). فقد سخر الله بعضا منهم لسليمان مثلما سخر لبعض الأنبياء والرسل. وكلفهم الله ببعض المهام، يعملون له ما شاء من محاريب وتمائيل وجفان وقدور راسيات. ومنهم من يعملون دون ذلك وغيرهم مقرونون في الصفاد.

وللجن تجربة مع القرآن نطالعه في سورة "الأحقاف" (آية 29)، وفي سورة "الجن": {قُلْ أُوجِبِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3) وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5)}. وكان الإنس هو أول من بدأ بقول هذا السفه بأن الله قد "اتخذ صاحبة وولد"، إلا أنه حتى الجن قد رفض فرية الشرك بالله أو أن له ولد. ويعترف الجن بأن بعضهم وبعضا من الإنس يقولون هذا الشطط !

أي أنهم كانوا يستمعون الى القرآن ثم مُنعوا من ذلك إذ نطالع في سورة "الجن": {وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9) وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10)}.

ومما نقف عنده متسائلين الآية (33) في سورة "الرحمن" التي تقول: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَتَنَفَّسُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُتُوا لَا تَتَنَفَّسُوا إِلَّا بِإِذْنِ رَبِّكُمْ}. أي ان القاعدة العامة هي عدم استطاعة الجن والإنس أن يخترقوا أقطار السماوات والأرض، فلقد زين الله السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجوما للشياطين، وأعد لهم عذاب السعير. ويقول المولى عز وجل: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (17)} (الحجر). إلا أن الاستثناء وارد بناء على قوله تعالى: {لَا

تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}. فهو سبحانه الذي يمنح لمن يشاء من عباده قدرات خارقة يمكنه بها اختراق السماوات باذنه، مثلما أنه لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسل.

وإن كانت إمكانية النفاذ من أقطار السماوات والأرض ممكنة استثناءً وبسلطان من الله، فهناك آية أخرى في سورة "النمل" تؤكد ما يسمى بنظام المجلوبات أو القدرات الخارقة لاستجلاب الأشياء سريعاً عبر مسافات كبيرة في لمح البصر. إذ {قَالَ عَفْرَيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي (40)}. وهو ما يدل على إمكانية أكبر وأعظم شأنًا، بمعنى أن قيام أي شخص من مكانه يستغرق بضع ثواني، أما ارتداد جفن العين فيأخذ أقل من ثانية.

وهو ما يؤكد أن القرآن، فالكتاب أحد اسمائه، يمكنه أن يمد المتعمق في علومه قدرات وإمكانات متفردة بإذن الله. وهو ما حدث عند استجلاب عرش ملكة سبأ. فهي المرة الوحيدة التي وردت فيها كلمة "عفريت" في القرآن. وقد رأينا أن "العفريت" هو أصلاً من الرجال وتعني "النافذ الأمر المبالغ فيه، فهو الداهي الخبيث، ومن كل شيء المبالغ فيه". ولم يفلح عفريت من الجن لأن من جلب عرش ملكة سبأ لسليمان كان من الإنس، من الذي عنده علم من الكتاب.

ومن ناحية أخرى، توضح لنا نفس هذه الآية وتحديدها: "عفريت من الجن"، أن كلمة عفريت تسري فعلاً على الإثنين، على الإنس وعلى الجن كما رأينا. وإلا لكانت صياغة "وقال عفريت أنا آتيتك به" تؤدي نفس المعنى ونفس الغرض، لكن الله شاء التحديد والتفرقة بين قدرة الإثنين، العفريت والإنسان، موضحاً أن من عنده علم من الكتاب أكثر قدرة.

ولقد رأينا أن اسم إبليس قد ورد أحد عشر مرة في القرآن، واللافت للنظر أن تسعة آيات منها متعلقة بسؤال المولى له عن رفضه السجود لآدم، أو تجاه آدم وفقاً لبعض المفسرين، ومهما تنوعت صياغة الإجابة فجميعها تدور حول احتقار إبليس لآدم لأنه مخلوق من طين أو من حمأ مسنون، أما هو فقد خلق من نار. إلا أننا نطالع في سورتنا "الشعراء" (95)، و "سبأ" (20)، أن فيهما معلومة مختلفة:

ففي سورة "الشعراء" بُرِّزَت الجحيم للغاوين لمن اتبعوا إبليس {فَكَبُكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْعَاوُنَ (94) وَجُنُودَ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95)}. ومن اللافت للنظر أنه عند مواجهة النار يدركون ما هم فيه ويتمنون العودة إلى الأرض {ليكونوا مؤمنين} (آية 102). أما في سورة "سبأ" (آية 20) فمتعلقة بمن اتبعوا إبليس وكفروا بالله وجعلوا له شركاء.

## الروح والنفس

كلمتان واضحتان تشيران إجمالاً إلى جوهر كيان الإنسان ككل. وتتناول كلمتا الروح والنفس بالدراسة والتحليل من خلال القرآن الكريم يستوجب تناول كلا منها على حدة حتى وإن تداخلتا في جسم الإنسان. وذلك لفهم حقيقة الإنسان وغايته في الدنيا. فالإنسان لم يُخلق عبثاً وإنما من أجل هدف محدد هو رسالته كخليفة الله في هذه الأرض لإعمارها ولمجاهدة النفس الأمارة بالسوء وتقويمها. فالإنسان هو الكائن المكلف الذي يفكر ويتدبر المسائل ولديه القدرة على تخطي الصعاب وعلى الابتكار، وعلى حمل الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين حملها وقبلها الإنسان (الأحزاب 72).

فالأمانة هي منهج الله في الأرض ونعمة العقل الذي ينفرد بإرادة خاصة في مجال الاختيار، وتمثل درجة الرقي الأخلاقي والنفسي والروحي. فهي ملمح تميز به الإنسان وقدرته على تفعيل معنيها. فالأمانة تقتضي أن يكون الإنسان أميناً في حياته وأقواله وأفعاله، الأمر الذي يمثل عكس الغش والخيانة. أي أن يكون الإنسان أميناً مؤتمناً. كما تعني الأمانة الفرائض الدينية التي فرضها الله على عباده والتكليف الذي خصّهم به لخلافته في الأرض وقبلها الإنسان. إضافة إلى ذلك التكريم الإلهي الأساس الذي خص به الإنسان إذ نفخ الله فيه من روحه وصنعه بيديه وجعله خليفة له عز وجل، ويا له من تكريم..

ولم يرد في الدين أي نص صريح واضح يشرح حقيقة الروح ويحدد معالمها، بل هي في نظر الدين كغيرها من سائر الحقائق الكونية، تُركت للبحث البشري. ويقول الشيخ شلتوت أنه لا مانع من البحث عن حقيقتها، فعلى الرغم من كل ما قيل وكُتب، لا تزال حقيقة الغيب الذي لم يكشفه الله بعد للإنسان، وباب البحث في جوهرها مفتوح لم يمنعه نص ديني. ونطالع في فتاويه: "إن الروح هي القوة التي تحدث الحياة في الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان". ويقول إمام الحرمين: "الروح جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر".

وهناك العديد من الآيات التي تحت الإنسان على البحث في اسرار الخلق والروح أو الكيفية التي بدأ بها الخلق من آدم إلى سائر المخلوقات، منها: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} (العنكبوت 20) ؛ أو {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19)}

وَأَلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) { (الغاشية). أي إننا مطالبون بل مأمورون من رب السماوات والأرض أن نتأمل ونبحث وندرس لنفهم كيف بدأ الخلق وتواصل حتى يومنا.

والروح تعني في لسان العرب رحمة ورزق: {وَلَا تَيَأْسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} (يوسف 87). وعبرة {أيدهم بروح منه} تعني برحمة منه سبحانه وتعالى. كما تعني النفخ، وسمى روحاً لأنه ريح يخرج من الروح: {وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ} (الأنبياء 91). والروح هي التي يعيش بها الإنسان وهي خلق من خلق الله ولم يعط علمها أحداً، وتكفيها معلومة أساسية واضحة: إن روح الإنسان هي نفحة من روح الله نفخها في آدم (ص 72). والروح تعني أيضاً: الوحي أو امر النبوة {يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْزِلُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ} (النحل 2)، و{رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنزِلَ يَوْمَ التَّلَاقِ} (غافر 15). كما تطلق الروح على جبريل، الروح الأمين، وروح القدس: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} (الشعراء).

والروح هو ملك في السماء السابعة. وروح الله تعني حكمه وأمره، وتعني حَفَظَةً، وتطلق على الملائكة الحفظة على بني آدم، ويقال إن وجوههم مثل وجوه الإنسان. كما تعني كلمة الروح "القرآن الكريم": {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} (الإسراء 85).

وإن قمنا بتلخيص كل معاني كلمة الروح في لسان العرب وفي القرآن لوجدنا أنها تعني: الرحمة والرزق، والنفخة الواهبة للحياة، والوحي، وجبريل، والفرج، والتثبيت على الإيمان، وملئك في السماء، وأمر من أوامر الله، والملائكة الحفظة للإنسان، والقرآن الكريم. والروح في الإنسان هي أمر إلهي، وأوامر الله الكثيرة في القرآن يصعب حصرها، والروح هي أحد الأوامر الخاصة بإنشاء وخلق الإنسان: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29)} (الحجر). أي إن روح الإنسان هي نفخة من نفحات ذات الله سبحانه وتعالى، وخلق الملائكة من نور، والجن من النار.

أي إن روح الإنسان هي نفخة ونفحة من نفحات رحمة الله الطيبة. وهو أكبر تكريم منحه رب العالمين لمخلوقاته البشرية بدأً من آدم وذريته الممتدة إلى أيامنا: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} (الأعراف 172). ونطالع في سورة "السجدة": {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا

مَا تَشْكُرُونَ} (آية 9). وفي سورة "الحجر": {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (آية 29). وتكرر نفس آية سورة "الحجر" في سورة "ص" {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (آية 72). وقد وردت عبارة {نفخت فيه من روعي} وتكررت أربع مرات في القرآن. أي أنه لا يمكننا تغافل هذه الحقيقة أو هذا التصريح الإلهي، بأن روح الإنسان هي نفخة من ذات الله سبحانه وتعالى، كما أنها اسم من أسماء القرآن..

### وقفة مع آية: { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ }

تعد آية { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } من الآيات التي أدت إلى قراءتان مختلفتان، إحداهما تم فهمها كالآتي: السؤال عن الروح، الرد: أنها من أمر ربي. أي لا شأن لك بها فهي من أوامر الله عز وجل. وهي قراءة سليمة من حيث الرد يُرجع كلمة "الروح" إلى الله عز وجل، فهي من عالم الأمر والبقاء لا من عالم الفناء. وهو ما أدى الى وقف البحث والدراسة ومحاولة الفهم، فهم كل أبعاد هذه الكلمة. أي ان حجة القائلين بحرمة البحث فيها غير صائبة، خاصة أن الله سبحانه وتعالى يحدد في نفس هذه الآية سبب إرجاعها أو إسنادها إليه، موضحا { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا }، أي إن علمنا نحن البشر في مجال علم الغيب جد قليل. ولا تقصد الآية أو هذا الجزء منها تحريم البحث في شأنها بما ان الله يحثنا ويدفعنا إلى العلم والبحث في عشرات الآيات. بل إن نفس تنزيل القرآن الكريم بدأ بفعل أمر {اقرأ}، أي أنه بدأ بمجال العلم والقراءة والبحث..

والدليل على ان هذه الآية، آية { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } مقصود بها القرآن هو ان الآيات السابقة لها والتي يشرح فيها المولى عز وجل: ابتداء من الآية 73 في نفس سورة "الإسراء": { وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِينَا إِلَيْكَ لِيَتَفَتَّرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۗ وَإِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا (73) وَلَوْ لَا أَنْ تَبْنَتْنَا لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (74) إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (75) }. ويتواصل الحديث في هذه الآيات في شرح كيفية الصلاة ومختلف مواعيدها والتهجد والعديد من الأدعية ومنها المتعلق بالقرآن: { وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۗ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا } (آية 82). وإذا أنعم الله على الإنسان أعرض ونأا وإذا مسه الشر كان يؤوسا. ويقول المولى كلُّ يعمل على شاكلته، أي كل فريق منهما، المؤمن وغير المؤمن. وتأتي آية { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } وتعقبها الآية (86) بوضوح شديد: { وَلَئِن سَأَلْنَا لَنُدْهَبَنَّ }

بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا}. وما أوحاه ربنا سبحانه وتعالى إلى النبي الأمين هو القرآن. وبعدها بأية واحدة نطالع تحديدا: {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89)}. وكل هذا المقطع من سورة "الإسراء"، من آية 73 إلى الآية 89 والذي تتوسطه آية "الروح" متعلق بالقرآن وهي نفسها، آية الروح، متعلقة بالقرآن وبإسم من اسمائه.

بل نطالع في الآية (105): {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (105) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتَبٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (106) قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُنْزَلُ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا}.

وإذا انتقلنا الى سورة "الشورى" نطالع: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ (51) وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (53)}. ومن الواضح هنا أيضا، أو خاصة، ان عبارة "وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا" المقصود بها القرآن. والقرآن هو رسالة التوحيد بالله وعدم الشرك به، التي أوحى بها ربنا سبحانه وتعالى الى محمد عليه الصلاة والسلام.

أما القراءة الثانية لهذه الآية فتعتمد على مختلف معاني كلمة "الروح" في لسان العرب وفي نفس النص القرآني. وهو ملمح يقوم عليه علم التفسير. فإذا ما وضعنا كلمة "الروح" من هذه الآية في سياق ومضمون الآيات العشر التي تليها، كما رأينا بعاليه، فإن معناها يرتبط فورا بالقرآن الكريم وتحديه للإنس والجن والمشركين الذين يطالبون بمعجزات حسية. وقد يرى البعض ان القراءتان جائزتان، إلا أن تحريم البحث عن معنى "الروح" في المجال الغيبي لا سند شرعي أو ديني له.

والروح هي أهم شيء في عملية خلق الإنسان، وقد كشف ربنا بعضا من أسرارها في الهندسة الوراثية، إذ إن أحد أسرار الحياة يكمن داخل الخلية الحية. وهذه الخلية الحية هي الوحدة الأساسية المكونة لجسم الإنسان والذي يضم قرابة ثلاثون تريليون خلية بشرية. ولكل خلية نواة، والنواة بداخلها تراكيب هي الكروموسومات حاملة الصفات الوراثية وعددها يختلف من إنسان لآخر. كما أنها بمثابة غرفة عمليات الخلية والعقل المدبر لها. والجينات المحمولة على الكروموسومات هي وحدات وظيفية، أما الكروموسومات فهي المسؤولة عن تخليق الإنسان.

وقد أثبت العلم أن الأجسام الحيّة وُجدت لأول مرة في الماء، في القاع الطيني للبحار القطبية، حيث نمت كائنات بسيطة أحادية الخلية، نباتية. ومن هذه الكائنات نمت وتطورت كائنات أخرى أرقى وأكثر تعقيدا. هذا فيما يتعلق بالطبيعة والحياة النباتية وغيرها. وهو ما يؤكد القرآن الكريم: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}. كما ذكر القرآن أربعة طرق لخلق الإنسان: آدم ؛ حواء ؛ عيسى؛ وسائر البشر. وما أثبتته العلم أن العناصر المكونة لقشرة الأرض، أو تراب الأرض هي نفسها المكونة للإنسان الذي خلقه الله من حمأ مسنون، أي من طين جاف يحتوي على المكونات الأساسية لبناء جسم الكائن الحيّ.

والروح، بحكم أنها نفحة من روح الله موجودة في كل خلية حيّة داخل الجسم وهي التي تهب هذه الخلايا والإنسان بكله الحياة والحركة. وهي الأمر الإلهي للجسد بأن يحيى بكلمة "كن". وهذا يوضح معني قوله سبحانه وتعالى: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي} في قراءة المعنى الروحي للآية والمعني القرآني لها. وقد أقر العلم أن المادة طاقة في درجة اهتزاز معينة، وتؤكد علماء الفيزياء الذين يختبرون تجاربهم جنبا إلى جنب مع علماء الفلك والبيولوجيا، أن الروح والمادة وجود واحد يتصف بمراتب اهتزازية تتدرج من الكثافة الملموسة إلى الطاقة التي يصعب رؤيتها. كما أثبت علماء الفيزياء والبيولوجيا والفلك أننا متجهون إلى تلاقي العلوم وتآلفها. ومن هذه الأبحاث نذكر على سبيل المثال لا الحصر: "العلم والروحية"، "الطاقة والمادة الحية"، "الطاقة والخصائص النفسية والعقلية للمادة".

فالمادة في نظر الفيزياء الحديثة ليست هامة وإنما هي في حركة دائبة. لأن وجهة النظر الكلية التي تتبناها الفيزياء الحديثة تعتبر الكون عملية عضوية وظيفية متحدة متناسقة وغير قابلة للانقسام أو التقسيم سواء في أساسها أو في جوهرها.

والعلم الروحي الحديث، وهو علم مادي متطور، لا يبحث في وجود الجسد الإنساني كظاهرة واقعية فحسب وإنما يدرسه من حيث اتصاله بالكون. فالجوهر الثلاثي للكون يشير إلى الروح والمادة والعلاقة المتداخلة والمتبادلة بينهما التي هي الحياة. فالروح والمادة كيان واحد مع اختلاف واضح في درجةذبذبتها. ودراسة جوهر المادة أكدت أنها روحانية في صميمها أو أنها حيّة في صميمها. فالروح هي المطلق وهي منبع ومصدر كل ما هو موجود في الكون وهي جزء من المطلق. والروح في نفس الإنسان هي جزء من المطلق وهي حقيقة جوهر الإنسان الواقعية، وهي لا تولد ولا تموت ولا تفني، فهي خالدة أبدية لأنها نفحة من روح الله سبحانه وتعالى.

وبحكم أن الروح طاقة، ولكي تدخل في الجسم الأدمي أو المادي لا بد لها من وعاء وسيط هو الجسم الأثيري، فهو أكثر كثافة من الروح، ويسمى "نفس" عند دخول الروح في الجسم. وهذه التركيبة الثنائية الروح والنفس هما المحرك للإنسان الذي التحما به والذي يقع عليه تنفيذ أوامر التكليف والاختيار بين الخير والشر، استعدادا ليوم الحساب.

## النفس

إن كانت كلمة "الروح" قد وردت في القرآن الكريم 24 مرة، فإن كلمة "النفس" قد وردت 297 مرة. وهو ما يوضح ان دور النفس في حياة الإنسان يقع عليه الجانب الأكبر في تجربة حياته في هذه الدنيا من جهد ومجاهدة، بل من صراع بين الخير والشر، وبين الصواب والخطأ، وبين الحلال والحرام. بما ان الله حين خلقها وسواها قد ألهمها فجورها وتقواها وبذلك حدد مصير ومصار الإنسان قائلا: { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ } (البلد 10). أي بينا له الطريقين: طريق الخير وطريق الشر. لذلك قال عز وجل: { قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10) } (الشمس). كما ان الله حين خلق آدم جعل فيه روحا ونفسا. فلا يقال النفس هي الروح على الإطلاق حتى تقيد، ولا يقال الروح هي النفس حتى تقيد. والنفس هي الجسد الحيّ فسيولوجيا متعلقة به الروح، أو ان شئنا الوعاء الذي يحتوى طاقة الروح.

والنفس في لسان العرب تعني الروح: { يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) } (الفجر). وتعني ما يكون به التمييز، أي العقل ؛ وتعني الدم، وسُمي الدم نفسا لأن النفس تخرج بخروجه من الجسم ؛ كما تأتي بمعنى أخ { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ } أي على إخوانكم وأخواتكم. ونطالع في لسان العرب أيضا أن لكل إنسان نفسان: العقل الذي يكون به التمييز، والروح الذي به الحياة. أي ان إحداهما تأمر بالشيء والأخرى تنهي عنه. كما تطلق على الذات الإلهية: { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ إِلَىٰ اللَّهِ الْمَصِيرُ } (أل عمران 28)، { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ } (أل عمران 30)، و { قُلِ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } (الأنعام 12)، وتكررت في "الأنعام" آية 54. كما تطلق على ذات الشخص: { مِّنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا } (الإسراء 15). وتعني أيضا العظمة والكبر والعزم والهمة والفرج



من الكرب. وفي الحديث: "لا تسبوا الريح فإنها من نَفْسِ الرحمن". كما تعني "عند": {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}، أي تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك.

وإذا ما قمنا بتلخيص مختلف معاني كلمة "النفس" في لسان العرب لوجدنا أنها تعني: الروح، الذات، عند، العقل، الدم، الأخ، العظمة، الكِبْر، العزة، الهمة، عين الشيء أي ذاتها، والفَرَج من الكرب، الإرادة، والغيب.

وإن كانت الروح في الكائن الحي أمر إلهي يحدد صفات المخلوق ويخلق خلاياه المكونة لجسده بأمر الله، فقد أحالت صلصال آدم الى جسد ذي لحم ودم وأعضاء وخلايا، والطين تحول إلى طير ذي لحم ودم بنفخة روح من عيسى بأمر الله، والروح التي نفخها الله في مريم خلقت منها عيسى بلحمه ودمه وان عيسى خلقت من روح "أمر إلهي" حمله ملك، فندرك من كل ذلك أن الروح هي المسؤولة عن عملية التخليق داخل الرحم وعملية تكوين اللحم والدم والأعضاء والخلايا بإذن الله وبأمره.

فالروح خاصة بالأمر الإلهي وما أن تتشكل إنسانا لا يطلق عليها "الروح" وإنما "النفس". وهو ما ندركه من آية سورة "الزمر": {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (آية 42). كما ندرك منها أنه من الطبيعي أن يتوفى الإنسان أثناء النوم، وهو ما يحدث كثيرا ونددهش من حدوثه!

والنفس هي المختصة بالأفعال والسلوك والإحساس. فالخير والشر صراع تعيشه النفس فهي المكلفة والتي يقع عليها أن توازن بين الخير والشر، فهي المحصلة الشاملة للأنا الخاصة والعقل الذي يضم في ذاته الوعي الباطن وما وراء الوعي بما أن كل شيء في الكون به حياة وعقل يتدبر الأمور ويوازن بينها. لذلك نطالع أن {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} (المدثر 38)، وخاصة ذلك التحذير الواضح: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۗ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (البقرة 281)، لأن الساعة آتية يكاد الله يخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى.

ولو تأملنا الآية الواردة في سورة "الأنبياء" (آية 35) لأدركنا حكمة ربنا سبحانه وتعالى في كل ما نتعرض له من أحداث ومحن: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۗ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}. فالشر أو الخير الذي يبتلينا به الله هو مجرد تجربة يضعها على الطريق، وما أسهل أن ينزلق فيها الإنسان بمختلف ردود الأفعال العشوائية، إلا لو تمهل ووازن بين الاندفاع والانتقام والانسحاق في المغريات.. فالتريث والتصرف بحكمة تفاديا لعمل السوء أو الانجراف في بريق المغريات هو المطلوب من النفس الإنسانية تحسبا لذلك اليوم الذي لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعا ولا يؤخذ منها عدل ولا تنفعها شفاعا أحد، وذلك

{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا} (آل عمران 30).

لأن تجربة الحياة بالنسبة للروح/النفس هي تجربة اختبار متواصل، يتعرض الإنسان خلالها للعديد مما نطلق عليه تجارب ومحن الشر والخير، فكلاهما محن تتقلب فيها النفس وتجتازها أو تسقط في منقلباتها، وفقا لاختيارها. فالحياة بكلها قائمة على الاختيار.. ولو شاء الله لأتى كل نفس هداها، وما أسهلها بالنسبة له عز وجل، بالنسبة لمن يقول للشيء "كن" فيكون، سبحانه. إذ أنه يضع الموازين القسط ليوم القيامة فالحساب حتمي وكل نفس بما كسبت رهينة.

لذلك يقول رب العزة {الْيَوْمَ تُجْرَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (غافر 17)، {فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ سَيِّئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (يس 54). وما أكثر ما نطالعه في القرآن من توجيه وتحذير لكيلا تقول نفس {يَا حَسْرَتًا عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ} (الزمر 56)، فالندم لا نفع له يوم الحساب. إذ تكاد معظم آيات النفس تدور حول هذه النقطة بتنويجات متعددة. بل حتى الأنبياء يسرى عليهم هذا القانون الإلهي: {وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَعْلَلَّ مَنِ يَعْلَلٌ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ ثُمَّ ثُوِّقَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (آل عمران 161). ويعلل معناها يخون، أي ما كان لنبي أن يخون أمته وما كان لمؤمن أن يكذب. لأن إرادة الاختيار التي منحها الله للإنسان هي مصدر الخير والشر في هذه الدنيا. والإنسان الحكيم هو ذلك الذي يمكنه عمل توازن بناء بين قطبي الخير والشر لاجتياز تجربة التكليف الإلهي.

ونطالع في القرآن ست آيات متعلقة بتكليف الروح/النفس، أي الروح التي تم إدخالها في تجربة الحياة المتجسدة: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}، فالله سبحانه وتعالى يعرف قدر وطاقة وإمكانات الروح التي خلقها. وتتوالى الإشارات الدالة والتوضيحية لذلك التكليف: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۗ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ} (البقرة 286) ؛ {لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۗ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُدُوا ۗ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ} (الأنعام 152) ؛ {لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (الأعراف 42) ؛ {وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۗ وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ۗ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (المؤمنون 62).

وإذا ما تأملنا هذه الآيات الخمس نرى أن الله يكلف الروح/النفس وفقا لقدراتها وطاقاتها التي منحها لها، وأنه سيحاسبها بما لها وما عليها. وأول ما يطالب به هذه النفس هو العدل مع الجميع حتى وإن كان من الأقرباء. وهذه النفس من أصحاب الجنة، وانهم سوف يحاسبون بالحق وفقا لما تم تسجيله في كتاب أعمالهم الذي ينطق بالحق ولن يُظلموا. إلا ان رحمة ربنا أكبر وأكثر عدلا مما نتصور، إذ يقول في آخر آية من الآيات التي ورد

بها التكليف: { لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا } . ولكي ندرك كل مضمون الآية ورحمتها نطالع: {لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} (الطلاق 7).

أي إن التكليف وفقا لطاقة الروح، أما الحساب فسيكون وفقا لما سمح به ربنا سبحانه وتعالى من إمكانيات لهذه النفس.. لذلك يقول بكل مراعاة ورحمة: {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي} (الفجر 27 - 30). فالحساب ليس عشوائيا.

لقد خلقنا الله وبعثنا كنفس واحدة، نتعاون ونتساند لإعمار الأرض. لكننا ننساق بكل أسف للسفاسف وتجرفنا المحن عن الطريق السليم لأن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي. فالله يبتلينا بالشر وبالخير فتنة لنا، والشر أقوى وأعنف في وقعه على النفس بكل ما يثيره من ردود أفعال غير حكيمة. وقد يكون الخير أقل عنفا في وقعه على الإنسان في نوعية المشاعر التي يحدثها، لكن ذلك لا يمنع ان كلاهما، الشر والخير، محنة تضعنا أمام تجربة الاختيار التي لا مهرب منها في كل خطوة.

لقد خلقنا الله سبحانه وتعالى من نفس واحدة أي من روح واحدة، وجعل منها زوجها أي مثلها، وهو الجسم الأثيري الذي يسمح للروح أن تتعامل وتندمج مع الجسم الأدمي. وفي نهاية تجربة تجسدها تمر بتجربة الموت وكل ما يواكبها من معاناة تختلف حدتها لتمر بتجربة الحساب. إذ يضع الله الموازين القسط ولا تظلم نفس شيئا حتى وإن كان مثقال حبة خردل. ففي ذلك اليوم { لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } (يس 54).

فالتجسد هو اختبار للنفس أي للروح المتجسدة لتوضع في تجربة الحياة الدنيا وكل ما بها من مغريات لتمر بامتحان الاختيار. فلو شاء الله لأتى كل نفس هداها لكن اختبار صقل النفس والتهديب الواجب على الإنسان أن يمر به لا مفر منه وإلا فلا معنى لتجربة الحياة في هذه الدنيا..

## القلب والعقل

من اللافت للنظر أن ترد كلمة "القلب" في القرآن 132 مرة، بينما جذر كلمة العقل "ع ق ل" تحديدا فلا وجود لها على الإطلاق وإنما نجد تفعيلات كل ما يقوم به العقل. وهو ما سوف نراه عما قليل. أما "القلب" فيبدو في القرآن وكأنه المحرك الأساس للإنسان ومشاعره وانفعالاته الخيرة والسيئة. فله أحواله الخيرة كالانشراح والتقوى والخشوع واللين والطمأنينة؛ ومن أحواله السيئة الضيق والقسوة والوسوسة والريبة والنفاق وظن السوء. كما أن القلب يمرض بسوء النية، ويتوه في ملاهي الدنيا، ويغفل عما كلفه به المولى عز وجل، ويمتلئ غلا، ويعاني من الغيظ والكبر والنفاق، فهو يقول بضمه عكس ما يضمن. ويعيش القلب العديد من الانفعالات فهو يعرف الألفة، والتنافر، والحسرة، والخوف بل الرعب، والزيف والغلظة؛ مثلما يعرف الرأفة والرحمة والتدبر، وينتفع بالذكرى. وللقلب حجاب، وخاصة ارتباطه بالعقل والسمع والإبصار. فنطالع في سورة الحج: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُّونَ لَهُمْ قُلُوبَ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (آية 46).

ونطالع أن لقلب الإنسان صفاته المتعددة: فالإنسان يتجه الى الله بقلب سليم، وقلب منيب، ونعجب لمعرفة أن الله يطبع على بعض القلوب أي يختم عليها فلا يعي صاحبها ولا يوفق لخير. لذلك يختم عليها بكفرهم ويطبع على قلوبهم فمنهم من لا يسمعون (الأعراف 100)، ولا يفقهون (التوبة 87)، ولا يعلمون (التوبة 93)، كما يختم على قلوب المعتدين (يونس 74) لأن قلوبهم في غمرة. كما قد يكون القلب متكبر جبار (غافر 35)، لذلك يختم الله على سمعه (الجاثية 23) لأن مثل هذه القلوب تتبع أهواءها وعليها أقفالها (محمد 24).

ورغم كل تلك المشاعر والمسالب التي يعيشها القلب فرحمة ربي أوسع مما نتخيل لأنه يحاسب الإنسان على نيته وعلى ما تعمد قلبه من الخطأ: {وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ} (الأحزاب 5). فإن يخطئ الإنسان جهلا لا يتساوى مع من يتعمد الخطأ.

ولا تنتهي المشاعر التي يتعرض لها القلب أو يمر بها، فعلى الرغم من كل ما تقدم، يوضح لنا القرآن أنه مركز الاعتقاد والإيمان {مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَامِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ} (المائدة 41)؛ {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ} (الحجرات 7). كما أن القلب يعد مركز الكفر، فنطالع في سورة "البقرة": {قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ} (آية 93). وفي سورة "النحل": {وَلَكِنْ مَن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ} (آية 106)؛ {وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (الحج 46). وقد ذكر الصدر أكثر من مرة في القرآن لتحديد مكان القلب الذي تدور فيه مختلف انفعالات الإنسان، القلب الذي في الصدر، وليس في العقل. وهو ما لم يدركه علماء الغرب حتى الآن.

ومن اللافت للنظر ان نجد العديد من الآيات التي تربط بين القلب والسمع والإبصار، ومنها: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ} (البقرة 7) ؛ و{وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِيُونَ} (الأعراف 179) ؛ و{أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ} (النحل 108) ؛ و{وَوَخَّتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} (الجناتية 23).

والربط بين القلب والسمع والإبصار يرتبط بفهم القرآن، خاصة إذا تأملنا معنى القلب والعلم، وبالتالي بين القلب والتفقه: {وَقَالَ الَّذِينَ لَّا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ} (البقرة 118). وكلمة "الآية" هنا بمعنى معجزة. و{طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَّا يَعْلَمُونَ} (التوبة 93) ؛ و{كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَّا يَعْلَمُونَ} (الروم 59) ؛ و{لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا} (الأعراف 179) ؛ و{وَوَطَّيْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَّا يَفْقَهُونَ} (التوبة 87). مما استوجب التساؤل من رب العزة: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا} (محمد 24). ويأتي الرد بوضوح {وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ} (الإسراء 46)، وتكرر الآية بصيغة التأكيد: {إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ} (الكهف 57). وذلك أكبر درس يمكن أن يواجه به المشركين والمنافقين والرافضين لرسالة التوحيد بالله.

وإذا ما تساءلنا عن سبب هذه القلوب التي عليها أقفالها أو تلك التي ختم الله عليها لكيلا تفقه شيئا، نلاحظ من كل الآيات التي ورد بها ذكر القلب، بكل تصريحاته، أن هناك أنماط متعددة من البشر، وبالتالي قلوب مختلفة بنفس تعددها. فهناك غليظ القلب، وصاحب قلب متكبر جبار، ومن هو أتم قلبه، أو في قلبه مرض، وهناك من أضله الله بعمله وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة. بل يقول القرآن أن هناك من إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوبهم، ومن على قلوبهم أقفالهما، وأصحاب القلوب القاسية فهي كالحجارة أو أشد قسوة، ومن في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا، ومن في قلوبهم زيغ ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ومن في قلوبهم غيظ وغلّ، ومن هو متكبر جبار الخ..

لذلك نطالع أن الله يحول أحيانا بين المرء وقلبه، ومن أغفل الله قلبه، ومن يختم الله على سمعه وقلبه، ومن جعل على بصره غشاوة، أو يلقي الرعب في قلوب الذين كفروا لشركهم بالله، مثلما يطبع على قلوب الكافرين وقلوب المعتدين. ويطبع على قلوب الذين لا يسمعون والذين لا يفقهون..

كما أن هناك بين البشر من قلبه سليم، ومن قلبه مطمئن بذكر الله، ومن يعظم شعائر الله، وهناك المؤمنون الذين أنزل الله السكينة في قلوبهم، ومن أَلَفَ بين قلوبهم، ومن حبيب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، والذين

إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، ومن هو قلبه مطمئن بالإيمان، ومن يهد الله قلبه، ومن لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها. لذلك أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً.

وإذا ما تأملنا القلب من الناحية العلمية لأدركنا كم كان القرآن سبقاً على العلم والعلماء. فبينما أطلعنا المولى عز وجل عن أدق تفاصيل القلب والدور الذي يقوم به في جسم الإنسان وفي كل حياته، نجد أن العلماء المتقدمين في الغرب لا يزالوا يتحسسون طريقهم لاستكشاف حقيقة دور القلب في حياة الإنسان، إذ كانت معلوماتهم حتى القرن العشرين تعتبر أن القلب مجرد مضخة تضخ الدم في جسم الإنسان، بل هناك من لا يزال يعتقد ذلك في أيامنا هذه، في القرن الواحد والعشرين..

والمعروف طبياً أن القلب يتم خلقه في الجنين قبل الدماغ وبعد 21 يوماً من الحمل. ويقوم القلب بالعمل على ضخ الدم في مختلف أنحاء الجسم. ومنذ النبضة الأولى يظل القلب ينبض حتى يلفظ الإنسان آخر أنفاسه. وقد درس العلماء القلب على مدى سنوات طويلة من الناحية الفسيولوجية واعتبروه مجرد مضخة للدم. إلا أنهم لاحظوا أن كل خلية من خلايا القلب لها ذاكرة. وأن القلب يتصل بالدماغ من خلال شبكة معقدة من الأعصاب وأن الإشارات الكهربائية التي يرسلها تؤكد أنهما يعملان بتناسق عجيب، وأن هذه الرسائل المشتركة بين القلب والدماغ على شكل إشارات كهربائية هي الأقوى مما في سائر أعضاء الجسم وفي الدماغ.

كما أثبتوا أنه يوجد داخل خلايا القلب برامج خاصة للذاكرة يتم فيها تخزين جميع الأحداث التي يمر فيها الإنسان وتقوم هذه البرامج بإرسال الذاكرة للدماغ ليقوم بمعالجتها. ويحتوي القلب على أكثر من 40 ألف خلية عصبية تعمل بدقة فائقة على تنظيم ضربات القلب وإفراز الهرمونات وتخزين المعلومات ثم يتم إرسالها للدماغ. لذلك نطالع في القرآن: {وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِحَبَّتِهِمْ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} (الأعراف 179).

والذي لا شك فيه أن الطب، على الصعيد العالمي، لا يزال متخلفاً في مجال القلب عن كل ما يحيطنا به علماً رب العالمين في القرآن الذي يحتوي منذ أكثر من 1400 سنة على ما لا يعرفه الأطباء حتى اليوم. إذ يحدثنا القرآن عن إن القلب هو مركز العاطفة والتفكير والعقل والذاكرة بل والإيمان. ولم يدرك علماء الغرب أن هناك علاقة ما بين القلب والدماغ إلا منذ بضعة عقود، عندما أدركوا أن القلب يؤثر على النشاط الكهربائي للدماغ. بل يتحدث العلماء جدياً عن دماغ موجود في مركز القلب وهو الذي يقوم بتوجيه الدماغ لأداء مهامه بصورة آلية منضبطة. فنطالع في سورة "الحج" (آية 46): {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَنُكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}.

كما يتحدثون عن الدور الكبير الذي يلعبه القلب في عملية الفهم والإدراك وفهم الأشياء من حولنا، وإن كل خلية من خلايا القلب لها ذاكرة. فالقلب هو الذي يوجه الدماغ في عمله وكأن الدماغ أداة تنفيذية لما يتلقاه من أوامر ومعلومات من القلب!

ومن الأبحاث الغربية التي أجريت في معهد "رياضيات القلب" (Heart Math) وجدوا أن المجال الكهربائي للقلب قوي جدا ويؤثر على من حولنا من الناس، أي أنه يمكن للإنسان أن يتصل مع غيره من الناس من خلال قلبه فقط دون أن يتكلم. وكأن القلب يمثل وسيلة من وسائل الاتصال الروحي كالسمع (الجلء السمعي) والإبصار (الجلء البصري).

إلا أن ما يحدده القرآن بوضوح وفي أكثر من آية حول القلب خاصة في سورة "الأعراف" (179) يحدد بوضوح:

1 - أن القلب وسيلة للتفقه: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا}،

2 - وإن العين وسيلة للإبصار: {وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا}،

3 - وإن الأذن وسيلة للسمع: {وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا}.

ومن أهم الأدلة على الدور الحاسم للقلب في حياة الإنسان ما اكتشفه علماء الغرب في أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين من تغيير وتبديل في أخلاقيات وطبائع كل الذين خضعوا لعملية تغيير القلب وتركيب أو زرع قلب إنسان آخر. فقد تعرض كل هؤلاء المرضى الذين خضعوا لعملية زرع قلب آخر في جوف صدورهم الى تغير نفسياتهم وطبائعهم وعاداتهم تغيرات جذرية سواء أكانت نفسية وجسدية أو حتى إيمانية، كان يتصف بها صاحب القلب الأصلي الذي تم زرعه. مما يؤكد أن كل ما طالعه من معطيات توصل إليها العلماء في مجال القلب حديثا جدا هي واردة بكل وضوح في آيات القرآن الكريم منذ 14 قرنا ويزيد، بل من المؤكد أن هناك ما لم يصل إليه العلم بعد حتى يومنا هذا..

أما كلمة "العقل" التي لا ترد على الإطلاق في نص القرآن وإنما نطالع مختلف تفاعلات وتصريفات عمل العقل بوضوح، ومنها على سبيل المثال:

\* ذكّر: ذكّرهم، تذكر، ذكّرتهم، تتذكرون، يذكرون، يذكرون الخ؛

\* التفكير: تتفكروا، تتفكرون، يتفكروا، يتفكرون ؛

\* التفقه: تفقهون، نفقه، يفقهوا، يفقهون، يفقهوه، يتفقهوا ؛

\* التدبر: يتدبر، يتدبرون، يتدبروا ؛

\* التعلم: علم، علمت، علمتم، علمنا، أعلم، يعلموا، تعلمون الخ ؛

\* الإيمان، وهو بالعقل والقلب: آمن، آمنتم، آمنوا، تؤمنوا، يؤمنون الخ..

فكل هذه التصريفات الواردة في القرآن هي معجزة من المعجزات للمؤمنين، لقوم يتذكرون، لقوم يسمعون، لقوم يعقلون، لقوم يتفكرون..

ان ما يؤكد القرآن ان الدماغ الذي يعلو جسد الإنسان، ونرى نحن البشر أن به المخ كجهاز للعقل، لا دور له بدون القلب. فالقلب يدفع اليه بموجات كهربائية حاملة للمعلومات التي يتعين عليه تنفيذها. لذلك يحدد الشرع في الإسلام إن المختل عقليا هو خارج التكليف. أي أنه ليس مكلف بأداء أي التزام أو فريضة من الالتزامات والفرائض الواجبة على الإنسان العاقل.

ولعل ذلك هو ما يفسر عدم وجود كلمة "العقل" في القرآن وإنما توجد كل تفعيلاته التي تؤدي بالإنسان إلى الحكمة. لذلك يقول المولى عز وجل: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} (البقرة 269).

## السماء والسموات

يقول رب العزة في سورة "الأنبياء": {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} (الآية 16)؛ وفي سورة "ص": {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا} (آية 27)؛ وفي سورة "الحجر": {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ} (آية 85)؛ كما نطالع في سورة "الحج": {وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} (آية 65). وهو ما ندرك منه بوضوح أن خلق السماوات والأرض لم يكن لهوا ولعبا، ولم يكن باطلا وإنما خلقهما رب العزة بالحق {وَلَنُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (الجاثية 22).



فهو {يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (الأنبياء 4). كما أوضح سبحانه {إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} (فاطر 41).

وقد سخر الله كل القوانين الفيزيائية والفلكية المناسبة لضمان عدم زوال الكون بغير إرادته. فمن معاني السماء في القرآن: الغلاف الجوي الذي تتشكل فيه الغيوم وينزل المطر. وفي دراسة جديدة في الغرب يؤكد العلماء إمكانية سقوط الغلاف الجوي على الأرض بسبب وزنه الهائل الذي يتجاوز مليار مليار كيلوجرام. وهناك قوانين كثيرة تحافظ على هذا الغلاف كقانون الجاذبية وقانون الكثافة، وإذا اختلت هذه القوانين سيؤدي ذلك الى انهيار هذا الغلاف بكل ما يحويه من هواء وغيوم ثقيلة، وسقوطه على الأرض بسبب الجاذبية يؤدي الى زوال الحياة نهائيا. لذلك نطالع في سورة "الحج" تكرار لنفس التحذير: {وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ} (الآية 65).

ولو تأملنا عبارة أنه {يُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} وأن ما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب لأدركنا إمكانية وقوعها على الأرض حين يأمرها رب العزة ويأذن لها. ثم سوف يطوي السماء كطيّ السجل للكتب، وتنتهي مرحلة من مراحل دورات الكون. فهو القائل سبحانه: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} (الأنبياء 104).

ولو توقفنا عند بداية الآية الثانية من سورة "الرعد": {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۗ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} وكرر جزئية {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} في سورة "لقمان" (آية 10)، مع فارق أنه يقول في آية "خلق" وفي الأخرى "رفع"، لذهلنا من دقة التعبير لكل شيء.

فالسما هي كل شيء من فوقنا، وتمتد من الغلاف الجوي للأرض حتى آخر مجرة في الكون. ومن ينظر الى السماء من خارج الكون يرى نسيجا محكما. وهذا النسيج عبارة عن بناء لبناته هي المجرات، يربط بينها خيوط يمتد كلا منها ملايين السنين الضوئية. وجميعها تقوم على قوى الجاذبية التي خلقها الله سبحانه وتعالى لضمان تماسك الكون وعدم انهياره. وعلى الرغم من تقدم العلوم الفلكية في الغرب فإن العلماء يؤكدون أنهم لم يتمكنوا من اكتشاف أكثر من 5% من أسرار الكون! فعدد المجرات يقدر بالملايين، وعدد النجوم في كل مجرة بمئات الملايين أيضا.

وفي بحث نشر في جامعة كاليفورنيا في مطلع 2014، يوضح العلماء أن الكون يحتوي على ملايين الخيوط الكونية، وكل خيط يمتد لمئات الملايين من السنوات الضوئية، وكل سنة ضوئية تساوي 9.46 (تسعة ونصف تقريبا) تريليون كيلومتر. وهي مسافات يصعب تصورها.. كما يتحدث العلماء في نفس هذا البحث عن عملية

"بناء" حقيقية للكون في بداية خلقه، وأنه لم يبدأ بالانفجار العشوائي المزعوم سابقا والذي يطلقون عليه "البيج بانج". انها عملية بناء منظمة تتم في نفس الوقت مع عملية اتساع الكون، تسير وفق نظام شديد الدقة. وهو ما يقوله القرآن بوضوح: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} (الذاريات 47). ومعنى "بأيدٍ" لغةً، أي بقوة.

كما يتحدث البحث عن الخيوط الكونية والنسيج مثلما أوضحه القرآن في آية {وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ} (الذاريات 7). و"الحبك" تعني النسيج المحكم، والطرق، وأمواج الرمال. والكون عبارة عن مجرات ونجوم ودخان وثقوب سوداء ونجوم طاقة سوداء ونجوم لامعة، وغيرها كثير. وجميعها تسير وتتحرك على مسارات محددة تشبه الطرق السريعة في مدنا. وقد تمكنوا من التقاط صورة حقيقية لأول مرة تظهر جزء من النسيج الذي يربط بين المجرات. ولو تأملنا ذلك النسيج الكوني الذي يربط بين المجرات لوجدنا أنه أشبه ما يكون بشبكة الأعصاب والأوردة والشعيرات التي تمتد عبر جسم الإنسان وتربط بين مختلف أجزائه وأجهزته.

وفي مطلع هذا العام، 2018، أكد العلماء في الغرب وجود كواكب خارج مجرتنا، درب التبانة، واستخدموا ما أطلقوا عليه "ميكرو عدسات" للعثور على كواكب في مجرة تبعد عنا 3.8 مليار سنة ضوئية بين القمر وكوكب المشترى. لذلك يقول ربي وهو أعلم بما خلق: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا (27) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (28)} (النازعات). ثم يؤكد نفس المعنى في سورة "غافر" (آية 57): {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}..

ولو تأملنا ما يرد في سورة "الأحزاب" بوضوح غريب: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۗ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} (آية 72)، لأدركنا يقينا، فالمتحدث هنا هو الله سبحانه وتعالى، إن السماوات والأرض والجبال تدرك وتفكر وتجيد التعبير عن نفسها ولها حرية الاختيار، فأبت حمل الأمانة وحملها الإنسان. وما أكثر الآيات التي تكشف لنا وتؤكد أن السماوات بها كائنات حية، ومنها: {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ۗ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} (الإسراء 55) ؛ {قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ قُلْ لِلَّهِ ۗ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۗ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ} (الأنعام 13) ؛ و"ما" لغة لغير العاقل، أي ان هناك في السماوات والأرض مخلوقات غير عاقلة. وفي سورة "الإسراء": {تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۗ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ خَلِيمًا غَفُورًا} (آية 44). بينما تؤكد هذه الآية ان بها كائنات عاقلة تدرك وتفكر. بل هناك في سورة "التوبة" (آية 72) ما يستوجب أبحاث لنفهم معناها: {وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ۗ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

وهو ما نطالعه في سورة "الإسراء" (70): {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}، أي ان الله سبحانه وتعالى يؤكد أنه أكرم بني آدم وفضلهم تفضيلاً حقيقياً على كثير مما خلق. ومقارنة الشيء لا تكون إلا بمثله من نفس النوعية. وهو ما يوضح أن هناك في الكون الواسع مخلوقات آدمية غيرنا، وأنه فضلنا عليها تفضيلاً.

ولو تأملنا بعض الآيات المتعلقة بالنفخ في الصور لطالعنا: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} (الزمر 68)، والصيغة هنا في الماضي. وفي سورة "النحل": {ويوم يُنفخ في الصور فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ} وصيغة النفخ هنا في المستقبل. وفي سورة "آل عمران": {أَفَغَيَّرَ بَيْنَ اللَّهِ يَبْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} (آية 83). وفي سورة "الحج": {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} (الحج آية 18).

ونخرج من هذه الآيات أن النفخ في الصور متكرر، فهو يرد في صيغة الماضي والحاضر، وهو ما يربطها بالآية التي تؤكد إعادة الخلق: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}، وان كل من في السماوات والأرض قد أسلم لرب العالمين ويسجدون له سبحانه وتعالى.

وإذا ما عدنا لخلق السماوات إجمالاً لوجدنا أن الله قد خلق لنا ما في الأرض جميعاً، ثم استوى الى السماء وهي دخان ففصاهن سبع سماوات طباقاً، أي طبقات مترابطة حتى السماوات العلى، وأوحى لكل سماء أمرها، وزين السماء الدنيا بمصابيح، وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً، وسخر الشمس والقمر كلٌ يجري لأجل مسمى. كما أنه عز وجل قد خلق السماء ورفعها بغير عمدٍ نراها.

والحديث عن السماوات في القرآن في مائة وتسعين آية، أما ما يتعلق فيه بالسماء فيرد في مائة وعشرين آية. وحين تستخدم السماء مفردة فعادة ما تعني السماء الدنيا الأكثر قرباً من الأرض، لذلك جعل فيها بروجاً وزينها للناظرين. فهو القائل سبحانه: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} (الملك 5). ونطالع على لسان الجن: {وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا} (8) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} (9) (الجن). أي أنهم منعوا تماماً من الاقتراب من السماوات.

والله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها. والعروج هو الصعود في خط منحنى. وعبرة "يعرج فيها" وليس "إليها" تدل على ارتفاعها وعلى تقارب السماوات أو تشابكها كالسلاسل، فهي سماوات سبع أو درجات سبعة. أما عبارة خلقها في "ستة أيام" في هذه الآيات فهي مجازية، لأن الزمن ناتج عن حركة أجرام فلكية، وعند نشأة الكون لم تكن هناك أية أجرام. لذلك فسرها علماء الفلك العرب ومن بعدهم الغربيون، بأن المراد بالأيام هنا هي أوقات أو مراحل أو حقبة زمنية معينة.

والله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهم ينتزل الأمر بينهن. فهو سبحانه وتعالى يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما نعدّ نحن معشر البشر. وقد يكون معنى ذلك ان ما يعرج اليه من حياتنا وأعمالنا في يوم من أيامه سبحانه وتعالى هو محصلة ألف عام مما نعيش نحن ونحسب..

ومثلما يعلم ربنا ما يلج في الأرض وما يخرج منها فهو يعلم ما ينزل من السماء وما يعرج اليها، مثلما يعلم - وقد أنبأنا، بأن نهاية حياتنا على الأرض حتمية. لذلك يلخص لنا الموضوع في آية لها مغزاها: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ } (الحجر 85). أي أنه يتعيّن على كل فرد منا أن يسعى جادا لتنقية ما علق بنفسه من مشاعر سلبية وينقيها تماما ليصفح عن كل الذين يكونوا قد آلموه.. أن يصفح ذلك الصّفح الجميل، الكريم، ويغفر قبل أن تأتي الساعة، سواء أكانت ساعة الإنسان نفسه أو ساعة الكون، فكلاهما حتمي، وتتواصل الحياة..

ذلك هو مُلك الله الذي له ما في السماوات والأرض وما فيهن، فاختلف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض، وَمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ - و"ما" كما نعلم للجماد أو لغير العاقل، و"مَنْ" للعاقل، فندّش عندما نطالع في سورة "الشورى": { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ } (آية 29)، و"دابة" هي اسم لما دب من حيوان ولما يعقل ولما لا يعقل، وتشمل أيضا دابة الإنس والجن. وبما أن الله سبحانه وتعالى قد استبعد الجن من السماوات، فكلمة "دابة" هنا تشير الى العديد من المخلوقات العاقلة وغير العاقلة.

وسخر لنا الله ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه. وهو ما نطالعه بوضوح: { أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } (لقمان آية 20) أي أنه أكملها وأتمها

ووسعها، غير إن أكثرنا لا يعلم، لأن منها الظاهر الواضح ومنها الباطن الذي لا ندركه، إذ أنه يدخل في مجال الغيب أو في مجال ما هو مغيب عنا.

والله الذي لا إله إلا هو تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده لكننا لا نفقه تسبيحهم. بل لو انتبهنا للآيات السابقة لوجدنا أن الله {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ} (الحج 18)، {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} (آل عمران 83). وقد يعجب البعض من ان كل ما في الكون وخاصة كل ما في السماوات يسبح ويسجد لله، وأنهم جميعا قد أسلموا لله عز وجل، فالدين عند الله هو الإسلام. والإسلام يعني أن نسلم أمرنا لله سبحانه وتعالى بكل صدق وإخلاص، بكل ثقة ويقين من أنه سيهدينا للأحسن والأصلح والأقوم، على قدر عملنا واختياراتنا.

لذلك نطالع في سورة "مريم": {إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95). ونعجب كل العجب حين نتساءل كيف؟ ويزداد العجب حين نطالع في سورة "الجاثية": {هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (آية 29). والاستنساخ هو اخذ نسخة طبق الأصل مما نقول ونعمل.. وهو ما أثبتته العلم الحديث في الغرب، من أنه ما من شيء يضيع ويذهب هباء، فكل ما ننطق به أو نقوم بعمله له أصدائه وطبعته في الكون، وما من شيء إلا وهو مسجل علينا.

وقد أثبت علماء الفلك في الغرب أنه أمكنهم مشاهدة تحركات الفلك والنجوم نزولا عدة قرون وأثبتوا ان التواريخ التي يتذرع بها بناء المسيحية الحالية غير سليمة فلكيا، وأن السيد المسيح لم يولد في الشتاء كما يدّعون، وإنما قد وُلد في الصيف. كما نطالع في القرآن الكريم: {وَهَزِي إِلَيْكَ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا} (مريم 25)، وهو ما لا يحدث إلا في شهور الصيف. لذلك يؤكد رب العزة أنه خلق كل شيء في الكون بالحق، ثم يضيف سبحانه بصفته العالم ببواطن كل الأمور: {وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ} (المؤمنون 7).

سبحانك يا رب، الحق، الذي هو المعيار والناموس وريشة العدل، إذا ما اتبع أهواء البشر لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن! وتقف الكلمات في الحلق، تحتبس خجلا من موقفنا نحن، يا معشر البشر، أمام الله سبحانه وتعالى، الذي نفخ في آدم، جدنا وجد البشر، من روحه وصنعه بيديه (ص 72 و 75)، كنموذج يتواصل فينا، وخلق وسخر لنا كل ما في السماوات وما في الأرض جميعا، وأسبغ نعمه ظاهرة وباطنة،

ونحن نعبث ونتوه في سفاسف الحياة الدنيا ومعاركها.. نتوه ونغرق في معارك دنيا لا قيمة لها، ولا نلتفت للرسالة التي من أجلها خلقنا لنكون خلفاء لله في الأرض!

وهنا ننقل إلى جزئية أخرى متعلقة بالسموات والأرض لنرى كيف أنه سبحانه على كل شيء قدير: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} (الطارق 12).

أولاً: ندرك من جزئية {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} (الطلاق آية 12) أن هناك سبع أراضي مثل الأرض التي نعيش عليها، وإن تفاوت معناها بين التفسير. إلا أن العلماء في الغرب يتحدثون منذ بضع سنوات عن وجود كون موازي في "بُعد ثالث" للكون الذي نوجد فيه، يطلقون عليه "الأكوان الموازية" (Parallel Univers)، وأنه بدوره يكشف عن وجود أكوان حقيقية أخرى في أبعاد إضافية، بعد اكتشاف وجود مزيد من "الثقوب السوداء" الصغيرة التي تؤكد وجود أكوان عدة في كل منها مجرة كمجرتنا، ومجموعة شمسية فيها أرض موازية بما وبمن عليها للأرض التي نعيش عليها. أي ان العالم ليس واحد بل عوالم متعددة ربها واحد. كما ان هذا الاكتشاف يؤكد أنه لا حقيقة لنظرية "الانفجار الكبير".

ثانياً: كما ندرك أن هناك صلة قائمة بين السموات والأرض، وأن الملائكة وظاهرة الجلاء البصري ومجال المنام تقوم بدور ما لمساعدة البشر وتعاونهم في الجهاد وفي غيره مما يقومون به لصالح الدنيا ولتقدمهم. إذ نطالع في سورة "الفتح" (آية 4): {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۗ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} ؛ وبعد آيتين نطالع نفس الآية تقريباً: {وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} . فهو سبحانه في الأولى عليماً، أي لا حدود لعلمه، وفي الثانية عزيزاً أي لا يقهر فلا حدود لقدرته، مؤكداً لنا أنه له جنود في السموات وجنود في الأرض. أي أننا لسنا وحدنا في هذه الدنيا وأنه حين نحتاج العون ونستحق المساعدة نجد جنود السموات والأرض عوناً لنا بأمره.

أما وجود ظاهرة الجلاء البصري في القرآن فنطالعها في عديد من الآيات، منها في آل عمران: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ (124) بَلَىٰ ۗ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125)} ؛ وفي سورة "التوبة": {ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ} (آية 26). ثم نطالع بعد عدة آيات في نفس سورة "التوبة": {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۗ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} .

ولا يقتصر الأمر على إنزال جنود من السماء لا أو لم يرها المؤمنون، والمفهوم أنهم من الملائكة التي تعاون المجاهدين مثلما أوضح رب العزة. إلا أننا نطالع في سورة "الأنفال": {إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا ۗ وَلَوْ أَرَاكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (43) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَاقُتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (44)}. وفي هذه الآية إشارة واضحة من الله سبحانه وتعالى أنه من خلال مجال المنام والرؤيا والجلء البصري يبلِّغ رسالة ما للرسول عليه الصلاة والسلام. فلولا هذه الرسالة التي تلقاها في المنام لربما تغيّر الوضع في المعركة..

كما نطالع في سورة "الأنفال": {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۗ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ ۗ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (65) الْآنَ خَفَّتْ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۗ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۗ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (66)}..

والجلء البصري هو أحد خمس حواس موجودة في الجسم المادي ولها ما يقابلها في الجسم الأثيري. وعن طريق الجلء البصري نستطيع أن نرى ما هو بعيد عن الرؤية بالعين العادية أو العين المجردة. أي أنه من الممكن رؤية شخص ما في مكان بعيد عن العين أو في غرفة مغلقة أو ما في باطن الأرض مثلا. والجلء البصري هو نشاط للغدة الصنوبرية التي تسمى "العين الثالثة"، ولم يصل العلم بعد إلى اكتشاف كل أسرارها أو كل إمكانياتها. ويقول العلماء أنه يمكن تنمية ملكاتها بتدريبات معينة. ويقول العلماء في الغرب أنها الغدة المسؤولة عن ربط الإنسان بمجال الاتصال الروحي.

وهذه الثنائية الموجودة في جسم الإنسان، فيما يتعلق بالعين كأحد الحواس الخمسة، والعين الثالثة الموجودة فوق الغدة الصنوبرية والتي يمكن تنميتها بالتدريبات المنتظمة، يفسرها بعض علماء المسلمين اعتمادا على الآية 49 من سورة "الذاريات": {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، وبأنها إشارة إلى الجسم المادي وان له ما يقابله في الجسم الأثيري، بما ان الآية تحدد {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ}، أي نوعين.

ولو تأملنا كلمة "الزوج" ومختلف معانيها في معجم "لسان العرب" لتأكد المعنى: فالزوج خلاف الفرد، إذ يقال زوجٌ أو فردٌ. وآية {وَأُنَبِّئُكَ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}، وزوج هنا بمعنى نوع، وكل واحد منهما أيضا يسمى زوجا، ويقال هما زوجان للاثنتين وهما زوجٌ للواحد. ويدل على ان "الزوجين" في كلام العرب اثنان وليس أربعة. وقول الله عز وجل: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى}، فكل واحد منهما زوجٌ، فالسماة زوجٌ، والأرض زوجٌ والشتاء زوجٌ، أي نوع..

وزوج المرأة بعلها، وزوج الرجل امرأته، وفي القرآن الكريم: {اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}، ويقال أيضا هي زوجته. والزوج: الصنف من كل شيء، وفي القرآن {وَأَنْبَتْنَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ}، أي من كل لون أو صنف حسن من النبات. وقوله تعالى: {وَأَخْرَجْنَا مِنْ شَجَلِهِ أَزْوَاجًا} أي ألوان وأنواع من العذاب، والزوج النمط. كما تعني كلمة الزوج: الفرد الذي له قرين، إذ تقول الآية {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} أي وقرناءهم.

فلو رجعنا الى الآية الكريمة {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}، وفي سورة "الرعد" (آية 3) {وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلْنَا فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ}، وعبارة من كل الثمرات تشمل كل المخلوقات إذ تأتي بعدها آية {وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} (آية 4). وأنها إشارة الى جسم الإنسان المادي، وان له ما يقابله وهو الجسم الأثيري، لأدركنا صواب وجهة نظر علماء المسلمين، كما ان وصف علماء الغرب للجسم الأثيري أنه مطابق للجسم الأدمي لكنه أشبه ما يكون بالدخان وله كثافة ما، أي أنه ليس صلبا. كما أننا نطالع في سورة "يس": {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} نجد أنها تدلنا بوضوح على تماثل الثنائية أو الزوجية بين الجسم الأدمي والجسم الأثيري الذي لا نعلم بعد كل أبعاده أو دوره في العالم الآخر، فما أكثر ما تحتوي عليه السماء والسموات ولا زلنا لا نعرف عنه الكثير رغم إشارات المولى عز وجل والتي لا تعد ولا تحصى في كتابه الكريم والتي يتعين علينا ان نتدبرها لنتقدم ونرقي..

وتبقى آية تمدنا بمعلومة أخرى حول السماوات والأرض واحتمال أن يكونا الى زوال: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ} (106) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (107) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ (108) { (هود). فعبارة "ما دامت السماوات والأرض" تعني عدة احتمالات متعلقة بدوامها أو بزوالها..



## الفصل الثالث

- . الآخرة
- . يوم القيامة
- . النفخ في الصور
- . يوم الحشر
- . يوم الحساب
- . النار
- . جهنم
- . الجنّة

## الآخرة

كلمة "الآخرة" من الكلمات العامة الشاملة والمتعددة الأوجه للدلالة إجمالاً على الجانب الآخر أو العالم الآخر. مثلما نقول "هنا" و"هناك"، وكلا منها تتضمن ما تحتوي عليه من مجالات متعددة متنوعة. ومن أسمائها أو من تلك المسميات التي تشير إليها وإلى الأحداث التي تقع فيها، في القرآن الكريم: الحاقة، الدار الآخرة، الساعة، الصاخة، الطامة الكبرى، الغاشية، القارعة، الميعاد، الواقعة، اليوم الآخر، يوم الأزفة، يوم البعث، يوم التغابن، يوم التلاق، يوم التناد، يوم الجمع، يوم الحساب، يوم الحسرة، يوم الخروج، يوم الخلود، يوم الدين، يوم الفتح، يوم الفصل، يوم القيامة، يوم الوعيد، ويوم الوقت المعلوم.

وإن كانت كل هذه المسميات تتفق في أنها تعبر عن ملامح ما من ملامح ذلك اليوم المشهود، فإن شئنا الدقة لوجب البحث في تفاصيل كل كلمة من هذه المسميات لندرك بشيء من الوعي بعضاً من ملامحها. فالحاقة هي الساعة، والقيامة، وسميت حاقة لأنها تحق كل إنسان من خير أو شر، وفيها حواق الأمور والثواب. وهي تحق كل مجادل في دين الله بالباطل فتغلبه. والدار الآخرة، وهي عبارة مركبة وصفتها كناية لمطاف الدنيا. والدار مأخوذة من يدور لكثرة حركة الناس فيها. ففي حديث القبور نطالع "سلام عليكم دار قوم مؤمنين". وسُمي موضع القبور داراً تشبهاً بدار الأحياء لاجتماع الموتى فيها. وعبارة "الدار الآخرة" تشير إلى آخر مكان ستجتمع فيه الأنفس لتواصل مشوار رقيها وتقدمها. والساعة هي الحد الفاصل لتلك اللحظة ولا تأتي إلا كلمح البصر، وزلزلتها شيء عظيم، ففي ذلك اليوم يخسر المبطلون. ويكاد الله يخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فالساعة آتية لا ريب فيها.

والصاخة هي القيامة، وهي الصيحة التي تكون فيها القيامة تصخّ الأسماع، أي تصمها فلا تسمع إلا ما تدعى به الإيحاء. والطامة الكبرى هي الداهية العظمى التي تطم على سائر الطامات، وهي النفخة الثانية التي تسلم أهل الجنة للجنة وأهل النار للنار. والغاشية هي الداهية من خير أو شر أو مكروه. ومنه قيل للقيامة الغاشية. والقارعة هي النازلة الداهية من خير أو شر أو مكروه، ومنه قيل للقيامة الغاشية. والقارعة هي النازلة الشديدة القرع الذي هو الضرب وداهية مهلكة. والميعاد هو إشارة إلى يوم لا ريب فيه، إلى يوم القيامة ويوم

الفصل ويوم الحساب. والواقعة هو اسم آخر لذلك اليوم الفصل الذي يرج الأرض رجًا وتبس الجبال بساً وينقسم الناس بعدها على ثلاث فئات: أصحاب اليمين، وأصحاب المشئمة، والسابقون المقربون.

أما باقي المسميات المرتبطة بكلمة "اليوم" فتشير الى مختلف الأحداث التي ستقع في ذلك اليوم تحديدا من بعث وتغابن وتلاق أو تناد.. وكلها أوصاف توضح لنا بصورة متكاملة مختلف وقائع ذلك اليوم المجموع له الناس، ذلك اليوم المشهود، لنستكمل بعده ما سوف نتعرض له بعد مرورنا بتجربة الحياة الدنيا.

أما الآيات المتعلقة بالأخرة، وعلى الرغم من كثرتها إلا أنه يمكن تقسيمها إجمالاً الى مجموعتين: مجموعة توضح لنا عاقبة سوء الاختيار، ومجموعة توضح لنا مصير الذين آمنوا غيباً، واختاروا وتصرفوا بناء على ذلك الإيمان اليقيني، بلا دليل مادي ملموس. أي من يؤمنون بالأخرة ومن يرفضونها لأنهم في شك منها، بل هم منها عامون. والأعمى عماء البصر والبصيرة لا يقارن بالمؤمن البصير..

فالأخرة إجمالاً هي دار القرار والاستقرار بينما متاع الدنيا عابر لا قيمة له. والحد الفاصل بين الفريقين إجمالاً هو مدى استجابتهما لإغراءات إبليس. فهو أساساً لا سلطان له على أحد إلا بالاستجابة له وقبول مغرياته. وما أكثر الآيات التي تحذر المسلمين ألا يتبعوا الشيطان، بل ألا يتبعوا أو يتولوا قوما غضب الله عليهم ويئسوا من الآخرة يأس الكفار من الموتى أصحاب القبور..

وبناء على اختياراتنا في الدنيا واستجابتنا لتعاليم الله أو لمغريات الشيطان ووعوده يتم تقييم الأعمال. فالذين يصدون عن سبيل الله ويبتغونها عوجاً، ولا يؤمنون بالأخرة واشتروا الحياة الدنيا بالأخرة، هم كافرون بها ولهم عذاب أليم، عذاب عظيم، وهم الخاسرون إذ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنصرون لأنهم في العذاب محضرون. وما يؤكد عليه القرآن الكريم أن عذاب الآخرة أشد وأبقى، لأن الذين لا يؤمنون بالأخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون، لذلك هم الأخسرون.

أي ان كل شيء متوقف على اختياراتنا وعلى أفعالنا وتصرفاتنا في الدنيا. فمن أراد حرث الآخرة يزيد الله له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا يؤته منها وما له في الآخرة من نصيب. ويتكرر نفس المعني في سورة "آل عمران" (آية 145) بصياغة مختلفة: {مَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ}. فالذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم. لذلك يقول المولى سبحانه: {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مَالَهُمْ يُنقِذُهُمْ ۚ إِنَّمَا لُغْمِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ} (آل عمران 178). وهو ما جعل الله سبحانه وتعالى يقول رافة بحال رسولنا الكريم ومعاناته ممن يسئ الاختيار: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} (يوسف 103). وفي سورة "المائدة" (41) يوجه له عز

وجل رسالة شاملة أكثر تفصيلاً: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَفُوتُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّر قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

ومن هذا العرض الموجز لما يرد من آيات حول كلمة "الآخرة" في القرآن الكريم، وقد وردت 165 مرة، وجميعها تقريباً توضح لنا باختصار شديد الفرق بين الدنيا والآخرة، وكثيراً ما يأتي التشبيه في عبارة واحدة لكل كلمة على حدة أو لهما معاً. وإن ما نخرج به من معطيات هو التفرقة الحادة الواضحة بين الإثنين وتوجيهها باقتضاب بعدم الوقوع في مغريات الدنيا لأن الآخرة خير وأبقى وهي الحياة الممتدة. بل يقول المولى عز وجل: {تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ} (الأنفال 67). لذلك أعطى بنى آدم دستوران في القرآن، أحدهما للدنيا والثاني للآخرة، وترك لنا حرية الاختيار.

دستور الدنيا يحدد لنا كيفية التصرف فيها مراعين حدود الله وقوانينه في اختياراتنا وتصرفاتنا ؛ ودستور الآخرة، أي الدستور العبادي الذي يحدد لنا كيفية الالتزام بالتعاليم الدينية التي تهدينا الطمأنينة والتقرب إلى الله. {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ} وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} (النساء 68). أي ان طاعة الله والرسول والالتزام بما منحنا من دستورين للدنيا والآخرة يضع الإنسان مع النبيين والشهداء والصالحين. وبعد هذا الحسم الواضح في توجيه اختيارنا وتوضيح أن الآخرة خير وأبقى، يتسابق العديد من الناس وينزلق في مغريات الدنيا وعود الشيطان الواهية!

ويصل قدر التوجيه لنا إلى قمته، وهو توجيه يتضمن التحذير الواضح الذي نطالعه في سورة "الإسراء" (آية 77): {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا}. أي أنه سيأخذ مشواراً طويلاً في الآخرة من الجهد والعمل ليرقي ويتقدم كروح حتى يتخلص من عماه. والعمى هو ذهاب البصر كله، إلا أن المقصود هنا هو عمى القلب وليس عمى العينان. فلا يقال فلان أعمى من فلان في العين، فالعماء واحد باختفاء البصر، وإنما يقال فلان أعمى من فلان في القلب. وعبرة ما أعماه، يراد بها عمى القلب لأن ذلك يُنسب إلى الشخص الكثير الضلال، ولا يقال في عمى العيون ما أعماه. وقد أوضح المولى عز وجل: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحَرُورُ}. وما يؤكد أن المقصود بهذه الآية الواردة في سورة "الإسراء" ما ورد من آيات مماثلة كقوله تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}.

فالمعنى واضح في قوله تعالى: {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا}. والمقصود بها الذين لا يؤمنون بالغيب رغم كل ما ورد في القرآن من إشارات أو من شرح له. فالآية صريحة الوضوح والمعنى: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} (العنكبوت 64). والحيوان في لسان العرب هي دار الحياة الدائمة. والحيوان اسم يقع على كل شيء حي، والحيوان هي الحياة الحقيقية التي يجب أن ندرك حقيقتها وأبعادها، وأن نستعد لها فترة وجودنا في هذه الأرض الفانية، ونهتم باختياراتنا لكل ما هو صواب أمين يؤهلنا للحياة القادمة. بل إذا تأملنا سورة "الضحى" بكل ما ورد بها، لأدركنا كل ما يود المولى أن يوصله لنا من معلومات بذلك التلخيص الموجز لحياتنا ولكل ما أكرمنا به من عطايا وإرشادات واضحة.

لذلك يقول ربي {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} (الإسراء 21). وهو ما يوضح لنا أن الحياة مستمرة في الآخرة يقينا، وان بها درجات وترقي أكبر وأفضل مما في الدنيا لأنه متعلق بالروح والنفس وقد نزع ما في الصدور من غل. بل لقد قسمنا المولى الى ثلاثة فرق: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشئمة، والسابقون المقربون. أي أصحاب الجنة، وأصحاب النار، والملتزمون المقربون..

## يوم القيامة

مما لا شك فيه أن ليوم القيامة مكانة خاصة في القرآن الكريم حتى أن الله عز وجل قد أفرد له سورة كاملة، بخلاف كل ما هو وارد عنه من سور بمسميات أخرى كالزلزلة والحشر، بل وآيات متفرقة في بعض السور، توضح ما سوف يكون عليه ذلك اليوم. وكلمة "اليوم" هنا مجازية لأن محاسبة جميع خلق الله الذي لا يحصى، وكلا على قدر عمله واختياره من خير أو شر يتعدى الأربع وعشرون ساعة من زمن دوران الأرض التي سوف تُنسف نسفا. وأن الله الذي لا إله إلا هو، حين يُقسم بذلك اليوم، ويقسم بالنفوس اللوامة التي ستتم محاسبة الإنسان وفقا لاختياراتها في الدنيا، سوف يجمعنا في ذلك اليوم الذي يمتد طوله في غياهب زمن الغيب واتساعه. وإذا ما قرأنا تلك الآيات متواصلة لأدركنا هول المنظر وهول ذلك اليوم:

{إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (5) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (6)} (الواقعة) ؛ {فَإِذَا بَرِقَ الْبَصْرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}

(القيامة) ؛ {إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13)} (التكوير) ؛ و {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَنَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4) (الانفطار) ؛ و {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (5)} (الزلزلة) ؛ و {الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5)} (القارعة). وكلها تفاصيل تشير إلى انفجار الأرض ونسفها هي وما عليها وكل ما يحيط بها أو يرتبط بها من أجرام وأفلاك أساسية.

أما في الآيات المتفرقة الواردة في بعض السور فنطالع: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16)} (الحاقة) ؛ {فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (8) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرْجَتْ (9) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10) (المرسلات) ؛ {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107)} (طه). ففي ذلك اليوم عرفت كل نفس ما أحضرت معها من أعمال، يومئذ يصدر الناس أشتاتًا ليُروا أعمالهم.. فذلك هو يوم الفصل الذي جعل فيه رب العالمين وقتًا للرسل للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم التي أرسلوا إليها.

واللافت للنظر ان كافة الآيات المتعلقة بيوم القيامة تنتهي أو تعقبها آيات توضح ما سيكون عليه مصير البشر: أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة. فالمقربون في جنات النعيم، وأصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم. ويتساءل الناس عن المفز؟ ولا يجدون إلا مخرج واحد: إلى ربنا المستقر، يُنبؤ الإنسان بما قدم وأخر. ففي ذلك اليوم تعلم كل نفس ما أحضرت. فلقد صدر الناس أشتاتًا ليُروا أعمالهم. فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأرأسه هاوية في نار حامية. وفي ذلك اليوم يتم عرض الناس جميعا ولا تخفى منهم خافية، ويتم تحديد المصير: في عيشة راضية وجنة عالية، أم يتم الإغلال والإلقاء في الجحيم. كما يتم استحضار الرسل للفصل بين أتباعها، وويل للمكذابين، إذ يتوعدهم رب العزة ثماني مرات في سورة "المرسلات".. وفي نفس ذلك اليوم يتبعون الداعي، الذي لا عوج له، وتخضع الأصوات للرحمن، فلا تسمع إلا همسا. وفي نفس ذلك اليوم أيضا لا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولا..

ونلاحظ في أغلب هذه السور تسلسل عملية خلق الأمم، كيف بدأت وكيف عصت ربها وتناحرت وكيف تتوالى كموجات البحر، كيف ماتت وهي ظالمة، وكيف أنها سوف تُبعث يوم القيامة. فذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود. وفي ذلك اليوم لن تنفعا الأقارب أو الأولاد، ولن يكون هناك معياراً يتم الفصل بيننا بمقتضاه إلا ما قمنا به من أعمال بناءً على اختياراتنا.

وفي ذلك اليوم، سيضع الله الموازين القسط، ولن تُظلم نفسٌ شيئاً حتى وإن كان مثقال حبة خردل، سوف يأتي بها. وذلك لأنه كان علينا حافظان كراما. يكتبان كل ما نقوم به من خير أو شر، فهم مكفون من رب العزة، يرون ويعلمون ما نعمل ويسجلانه. فنطالع أنه في ذلك اليوم، يوم الدين، لن تملك نفسٌ لنفس شيئاً، وكل نفس سوف تجادل عن نفسها، وإن الأمر يومئذ لله وحده.

إلا أن أكثر ما يستوقفنا هنا، في هذه السور والآيات بعامة، فهي سورة "الزلزلة"، تلك السورة التي تكشف لنا جانباً هاماً من عالم الغيب، جانب الاتصال والتواصل بين الخالق ومخلوقاته.. فإذا زُلزلت الأرض زلزالتها، وهي مُجبرةٌ مأمورةٌ من المولى سبحانه، وأخرجت الأرض أثقالها، فيندهش الإنسان ويتساءل عما بها؟ {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (5)}. أي إن الله سبحانه وتعالى سيأمر الأرض بأن تنزل زلزالتها، لتُخرج ما بها من أثقال.. والأثقال هنا تعني كل ما تحتوي عليه من كنوز ومعادن وركام المخلوقات وجثتها. وعند هذا السؤال الصادر من هلنا سوف تحدثنا أخبارها لتقول لنا بوضوح: "أن ربك أوحى لها" !

فالوحي والإيحاء هو لغة التخاطب والتواصل في المجال الغيبي بانتقال الفكرة من المصدر إلى الصادر إليه، كما نطالعه عند الذين بحثوا هذا الأمر علمياً من العلماء تحت مسمى "توارد الخواطر"، ونطالعه أيضاً في آيات كثيرة من آيات القرآن الكريم. فالوحي هو اللغة التي يستخدمها المولى عز وجل لتبليغ الوحي لرسله ولتبليغ المعلومة التي يُحرك بها مخلوقاته. وذلك هو ما سبق وطالعناه في أجزاء أخرى من هذا البحث.

لقد تناول الجزء الذي تقدم، الآيات المتعلقة بوصف الأحداث التي تسبق قيام الساعة من انفجارات ونسف للجبال ودك للأرض وكل تلك التقلبات والانهيئات الكونية المصاحبة لها. أما المجموعة التالية من الآيات التي تشير إلى ما سيتم من أحداث في ذلك اليوم، وهي الأكثر عدداً، فهي آيات تتناول بشيء من التفصيل والتنوع نتيجة عدم الالتزام بتعاليم الله والمرسلين، خاصة ما أصاب وسوف يصيب أصحاب آخر رسالتين قبل الإسلام من يهود ونصارى.

ويكشف رب العزة عن الخلافات التي دارت بينهم، إذ نطالع: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۗ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ

بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) { (البقرة). وتبادلوا التهم والفريات والمعارك، ونقضوا ميثاقهم. فيقول الله العالم بكل ما يدور: {فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (المائدة 13). وإن كان رب العالمين يطالب الرسول عليه الصلاة والسلام بالعفو والصفح عنهم، فذلك لا يعني إن ما قاموا به من جرم ولا يزالوا سوف يمر ويمضي مر السحاب، فقد أغرى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف يُبْنِئهم الله بما كانوا يصنعون (المائدة 14).

واللافت للنظر في هذه المجموعة من الآيات أنها أنزلت في مطلع القرن السابع الميلادي، في وقت كانت المعارك والمشاحنات بين الفريقين محصورة، ولم تنتشر فضائح ما قاموا به من تعديل وتبديل وتحريف أو شرك بالله وكفر بوحدانيته، مثلما هي معروفة اليوم وثابتة في وثائقهم ومؤلفات علمائهم. فكل ما أتى به القرآن الكريم من معلومات أثبتته العلماء حتى في العصر الحديث حيث باتت كنائسهم بمختلف فرقها تعاني من تباعد الأتباع مهما تفننوا في محاولات اجتذابهم. لذلك ألقى الله العداوة والبغضاء بينهم إلى يوم القيامة.

فقد كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، أو كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، كما اتخذوا أوثانا من دون الله، بل وجعلوا له ابنا وأما، بل قاموا بتأليه ذلك الابن وجعلوه الإله الوحيد المتفرد في حربهم ضد الإسلام. وكل هذه الأعمال والأفعال سيقضي الله يوم القيامة في كل ما كانوا فيه يختلفون وينبئهم بما كانوا يصنعون، ولن يجدوا من يجادل عنهم أو من يكون عنهم وكيلًا. بل {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (آل عمران 77).

وما أكثر الآيات التي توضح لنا مصير الذين كفروا وهو ما نراه بتلخيص واضح في سورة "المائدة": {إن الذين كفروا لو إن لهم ما في الأرض جميعا ليفتدوا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم} (المائدة 36).

كما نخرج من الآيات المتعلقة بيوم القيامة بأنه يوم مجموع له الناس وأنه يوم مشهود، وإن الله الذي لا إله إلا هو سيجمعنا في ذلك اليوم الذي لا ريب فيه، وأن كل من في السماوات والأرض أتى الرحمن فردا، ويوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد. لأن كل نفس قد ذاق الموت ولأن كل إنسان ألزمه الله طائره في عنقه، والطائر عنا إشارة إلى الروح. وفي ذلك اليوم يُخرج له الله كتابا منشورا وهو الذي يفصل بين الناس



يوم القيامة. لذلك يضع الموازين القسط ولا تظلم نفسا شيئا وإن كان مثقال حبة خردل. أي إننا سنوفي أجورنا يوم القيامة وإن الله عز وجل قد كتب على نفسه الرحمة.

ومن فاز هو من أدخل الجنة، بل من زحزح عن النار فقد فاز أيضا، لاجتيازه محنة الحياة الدنيا التي ليست سوي متاع الغرور. وفي ذلك اليوم يبعث الله من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يُستعتبون. وكان الذين كفروا سوف يُستبعدون من أول عملية حساب، ثم يأتي دورهم.

ثم نلاحظ أن هناك تقسيمات إجمالية: فما من قرية إلا يهلكها الله قبل يوم القيامة أو يعذبها عذابا شديدا. لأن الله يعلم كل صغيرة وكبيرة، وهو مع خلقه أينما كانوا ثم ينبئهم في ذلك اليوم بما عملوا. ففي يوم القيامة لا الأرحام ولا الأولاد تنفع أحداً حين يفصل الله بين خلقه. ومن هذه المعالم الإجمالية أن الله لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا، وإن الذين كفروا لن يُقبل منهم أي شيء ليفتدوا به من عذاب ذلك اليوم، ولهم عذاب أليم. بل سوف يخزيهم الله بكفرهم وعليهم خزي السوء. ونطالع في سورة "المائدة" (آية 36) {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

أما الذين ظلموا فيأخذهم الله بعذاب بنيس وسيبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب. فلو أن للظالمين ما في الأرض جميعا ومثله لاقتدوا سوء العذاب يوم القيامة، لكن الله لا يحميهم. أما من يلحد في آيات الله فيلقى في النار. والغافلون في دعائهم فهم ضالون الى يوم القيامة. أي ان ضلالهم سيمتد بهم طوال حياتهم الدنيوية والأخروية الى يوم القيامة، حتى وإن كانت لهم حيوات أخرى لم يرجعوا فيها عن غفلتهم.

وتعد صفة "الضالين" من أهم الأوصاف التي تربطنا بالموضوع لهذا البحث وخاصة نقطة إعادة الخلق في "خلق جديد"، أو بلغة المجال الروحي "إعادة التجسد". فنطالع في سورة "الإسراء" {وَمَنْ يُضِلِّ لَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ۗ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا ۗ وَصُمَّآ ۗ مَا وَهُمْ جَاهَنَّمَ كَلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَيْسَ لَنَا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98)}.

وقد رأينا في نقطة سابقة كيف أن عبارة "خلق جديد" يختلف معناها وفقا لنص الموضوع الذي ترد فيه، فهي تعني "مرحلة جديدة" حين يتحدث الله عن تدرج عملية الخلق للإنسان. فكل مرحلة من مراحل النطفة والعلقة والمضغة إلى آخره تمثل خلقا جديدا بالنسبة للمرحلة التي قبلها. أما حين تأتي بعد أن يموت الإنسان ويصلح عظاما ورفاتا ويتوه ترابه في تراب الأرض، فذلك يعني إعادة خلقه من جديد، بمعنى إعادة تجسد الروح في جسد آدمي جديد بكل مراحل العمرية. لذلك يقول الله عمّن ينكر إعادة الخلق من جديد {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (الرعد 5-6)، لأن إعادة الخلق

هي جزء لا يتجزأ من عملية الخلق الكلية التي أوجدها الله. فنطالع الرد على الرافضين لنظام الله في خلقه الآية التالية من سورة "الإسراء" (99): {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا}؟! أي إن الإصرار على رفض فكرة إعادة خلق الإنسان أو إعادة تجسده تعد كفرا بنفس فكرة عملية الخلق ودورة حيوات الإنسان.

ويحذرنا الله ألا نكون كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ونتخذ أيماننا دخلا بيننا. بل يحذرنا ثانية في نفس سورة "النحل"، بعد آيتين، ألا نتخذ أيماننا دخلا بيننا فتزل قدم بعد ثبوتها ونذوق السوء بما صددنا عن سبيل الله فيكون لنا عذاب عظيم.

وهناك مجموعة من الآيات متعلقة بالذين آمنوا والذين هادوا والصائبين والنصارى والمجوس والذين أشركوا، وهي أمم قديمة ولّت أو سابقة على الإسلام. فلقد بوأ الله بني إسرائيل مبعأ صدق ورزقهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم، وقد لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم بما عصوا وكانوا يعتدون. ثم قست قلوبهم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة. وكان فريقا منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسْتَ تَرَوُا بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} (البقرة 79). كما قالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب. ومن الذين هادوا قالوا إنا نصارى أخذ الله ميثاقهم {فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ} (المائدة 14). وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون.

وقد حدد الله بوضوح أنه سيحكم بين كل المختلفين في دين الله يوم القيامة. سيحكم بين اليهود والنصارى فيما اختلفوا فيه وفيما غيروه وبدلوه وهم يعلمون، وكذلك سيفصل بين من يجادل بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ليضل عن سبيل الله، فله في الدنيا خزي ويوم القيامة يذيقه الله عذاب الحريق. علما بأن الله قد أتى بني إسرائيل بينات وما اختلفوا إلا بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم، فيقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه مختلفون. أما الذين يفرطون في عهد الله فلا خلاق لهم ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم. ويقول المولى عز وجل بكل وضوح اعبدوا ما شئتم من دون الله فلن يستجاب لكم.

إلا ان المسلمين ليسوا كالمجرمين يوم القيامة فحسابهم متعدد ومتفاوت موضوعيا وفي درجة العقاب. فمن يعرض عن ذكر الله يحشره يوم القيامة أعمى، ومن يعرض عن القرآن يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساءهم يوم القيامة حملا. ومن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه يُرد يوم القيامة إلى أشد العذاب. والذين

يخفون ويكتمون ما أنزل الله لا يكلمهم ولا يذكهم ولهم عذاب أليم. أما الذين كذبوا على الله في يوم القيامة وجوههم مسودة وجههم مثنى للمتكبرين. أما الذين بخلوا بما أتاهم الله من فضله فسوف يطوقون به يوم القيامة. وهو ما يعود بنا إلى أولى آيات سورة البقرة وإلى وصف المتقين {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}. فالعطاء من كل الهبات والملكات التي أكرمنا بها رب العالمين فرض على كل مسلم يود أن يكون من المتقين.

وتتنوع عذابات الذين خسروا وتفاوتت، فطالع في الآيات التي تتناولهم: الذين خسروا والأخسرين والأخسرين. فالذين خسروا أنفسهم وأهليهم يعرضون على النار خاشعين من الذل وهم في عذاب مقيم. والمقصود هنا مجرد العرض. أما الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم فعلا يوم القيامة ذلك هو الخسران المبين: لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل.. أما الأخسرين عملا فهم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. أولئك هم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا يقيم لهم وزنا يوم القيامة.

وكل هذه الأنواع المختلفة من العذاب وكل هذه المعاناة التي تنتظر من لم يلتزم بتعاليم الله الواضحة، بل الشديدة الوضوح، يخوف بها الله عباده مسبقا، ويحذر {يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ} (الزمر 16)، لكن إغراءات الحياة الدنيا عادة ما تجرفهم. لكنه حذر بكل وضوح عليهم يتقون.

أما من يشرك بالله ويقتل ويزني يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وعمل صالحا فأولئك يبذل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما (الفرقان 68 - 70). وعبرة "إلا من تاب وعمل صالحا" من الواضح أنها تشير ضمنا إلى حياة أخرى أو إلى حيوات الإنسان. ففي لحظات الحساب يوم القيامة، كيف يمكن للنفس أن تتوب وتقوم بأعمال صالحة وهي في حالة محاكمة إلهية، والنفس هنا، كما رأينا في العديد من الآيات هي ذلك الوعاء الذي يحتوي الروح. فالروح طاقة من نور الله كما أوضح سبحانه. وما أن تُؤمر بالدخول في الجسم تسمى نفسا. لأنها تحاط بالجسم الأثيري الذي يسمح لها بالتعامل مع الجسد. والنفس هي التي تموت والتي تقف يوم الحساب تجادل عن نفسها أي عن ذاتها. فكيف لها وهي في مثل هذه الحالة "أن تتوب وتعمل صالحا" إن لم يكن ذلك في حياة أخرى؟ خاصة والحساب هنا في يوم القيامة.

ومن الواضح أنه في يوم القيامة سيكون الحساب على مجمل الحيوانات والتجارب التي عاشها الإنسان ومختلف درجات الرقي والتقدم واتقاء الخطأ والمغريات كنفس معروف أنها "لوامة أمارة بالسوء"؟ فمن انغرس في حياة سابقة في عمليات الشرك بالله والقتل والزنى ثم في حياته نجح في تخطي هذه الرذائل، وهو

من الصعب على مثل ذلك الإنسان، لذلك أقول حيوات أخرى أمكنه فيها اجتياز هذه المعاصي وتاب عنها، فإن الله يبذل سيئاته حسنات. وهو ما يكشف عن عمق عبارة "إن الله غفور رحيم"، لأنه كتب على نفسه الرحمة.

وإذا ما تأملنا سورة "النازعات" بشيء من الدقة لوجدنا أنها تنقسم إجمالاً إلى خمسة مقاطع: 1 - (من 1-14): الراجعة وما يعقبها من نشاط غير عادي للملائكة ؛ 2 - (من 15 - 26): قصة موسى وفرعون الذي طغي ؛ 3 - (من 27 - 33): سرد خاطف لخلق الكون ؛ 4 - (من 34 - 41): الطامة الكبرى وبروز الجحيم والجنة ؛ 5 - (42 - 46): السؤال عن الساعة.

ولو تتبعنا كلمة "الرجفة"، وتعني الهدة والصوت الهائل، وقد وردت ثماني مرات في القرآن بتصريفاتها، وجميعها يشير إلى نهاية قوم يكذبون الرسل. أي أحقاب أو موجات متتالية من البشر، تأتي الموجة وتذهب، وتأتي غيرها.. فنجدها في سورة "المزمل" كعذاب للمكذبين {يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهَيْلًا} ؛ وفي سورة "النازعات" {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتَّبِعَهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8)} ؛ وفي سورة "الأعراف" عند الذين استكبروا وكفروا من قوم صالح وعقروا الناقة {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} ؛ وفي نفس سورة "الأعراف" عند الذين كفروا من قوم شعيب {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} ؛ وقوم موسى {فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ} ؛ كما ترد في سورة "العنكبوت" عند أهل مدين وأخاهم شعيب {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} ؛ وآخرها في سورة "الأحزاب" {لَّيْن لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ} أي مثيرو الشغب.

وما أكثر ما نطالعه في القرآن من قوم آخرين، مثال قوم نوح الذين أغرقهم الله، وقوم عاد وثمود ولوط وصالح وأصحاب مدين وأخاهم شعيب والمؤتفكات ويونس وإبراهيم وأصحاب الأيكة وأصحاب الرس وقوم تبع وشعيب وموسى وقوم عيسى.. كل هؤلاء القوم أباهم الله جماعة بطرق مختلفة، فمنهم من غرق في البحر ومنهم من أصبحوا جاثمين، أي تلبدوا بالأرض ولصقوا بها ولزموها مثل قوم مدينة يومئذ أيام الرومان.

وندرك من كل هذه المشاهد التي تقدمت أنها لا تتعلق بيوم القيامة وإنما هي متعلقة بأحداث طبيعية عنيفة وفجائية، كالطوفان والزلازل والأعاصير، لإزاحة قوم ما لطغيانهم وفساد أخلاقهم وبعدهم عن تعاليم الله. وهو ما ندرکه من المشهد الأول لسورة "النازعات"، فالآيات من 1 إلى 14 تمثل أحد هذه المشاهد. وهذا الموت

الجماعي الفجائي الذي يضرب قوم ما يستوجب حركة فجائية دائبة من الملائكة وهي تنتقل بسرعة سابعة في الفضاء وهي تهرع لإجتباء الأنفس بعنف أو برفق، وفقا لحياة ذلك الإنسان ووفقا للتعاليم التي تلقته الملائكة المكلفة باصطحاب النفس. ثم تعود بسرعة ليديروا أمر هؤلاء الذين انتقلوا إلى العالم الآخر، وفرز من عليه أن يبقى في البرزخ لفترة أطول ومن عليه أن يعود إلى الأرض. والزمّن في القرآن يشير إلى فترات زمانية مختلفة وإلى أحقابا.

بينما وقف هؤلاء الذين كتبت عليهم العودة، ينظرون بقلوب خائفة وأبصار خاشعة وهم يتساءلون بدهشة {أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ؟} والحافرة لغة تعني العودة الي الأرض، إذ يقال رجع فلان في حافرته أو على حافرته أي رجع من حيث أتى. والحافرة في كلام العرب تعني الدنيا. ويتمادى القوم في تساؤلاتهم واستنكارهم {إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّجْرَةً}؟! ولا بد من ان الرد قد أتاهم بحيث راحوا يرددون في حسرة: {تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ}، أي رجعة خائبة أو كرة خسران. وما هي إلا لحظة لحسم الموقف: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ} (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)}. والزجر هو المنع والنهي والانتهاز ليكفوا عن النقاش، وإذا بهم في الساهرة، أي على سطح الأرض.

وهنا لا بد من الإشارة الى أبحاث وكتاب الطبيب ريموند مودي "الحياة بعد الموت" الصادر في مطلع الثمانينات من القرن العشرين، الذي تناول فيه التجارب التي مرت عليه كطبيب يتوفى المريض إكلينيكيًا أثناء عملية جراحية ثم يعود الى الحياة ويقص عليه تجربة ما شاهده وكيف أنه أمر بالعودة الى الأرض لأن موعد انتقاله الى العالم الآخر لم يأت بعد. وتوالت هذه الأبحاث في الغرب وما أكثرها.

ولو تابعنا بقية المشاهد في سورة "النازعات" لوجدنا أن المشهد الثاني يتعلق بقصة فرعون موسى الذي طغى، لعله يكون عبرة لمن يخشى. ثم نطالع فقرة خلق الكون لنرى هل ذلك الكون الذي لا يمكن لبشر أن يتصور أبعاده ولا محتواه، أصعب خلقًا أم إعادة خلق الإنسان في تجسد جديد؟ ثم نطالع فقرة "الطامة الكبرى"، وتعني يوم القيامة ومشهدا النار والجنة. وتنتهي السورة بالتساؤل حول موعد الساعة، تلك الساعة الرهيبة التي حين يراها الناس {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} في تلك الدنيا. وهو ما يؤكد نسبية الزمن في القرآن.

كما نخرج من سورة "النازعات" بأنها تشير إلى دورات القوم كجماعات أو شعوب، وكيف يزيحهم الله حين يطغون ويأتي بغيرهم، بينما تتواصل الحياة بالقوم الآخرين كموج البحر المتواصل الذي لا ينضب. إلا أنها تنتهي بالتساؤل عن الساعة يوم القيامة، والمقصود بها النهاية.. نهاية الأرض بأجرامها.

وإذا ما رجعنا إلى سورة "القيامة" لاستوضح الموقف، وهي مثل كل سور القرآن تنقسم إلى مشاهد أو مقاطع محددة. فنجد أن أول مشهد فيها يمتد من الآية الأولى إلى الخامسة عشر. وأول ما يلفت النظر في هذه الفقرة المكونة من خمسة عشر آية قصيرة، ورود كلمة "الإنسان" خمس مرات صراحة وعشر مرات ضمنا أو إشارة. كما نلاحظ ورود كلمة "النفس اللوامة" وإن الإنسان، في ذلك اليوم، على نفسه بصيرة. والمعروف أن كلمة إنسان تعني وتتكون من الروح والنفس والجسم. ولا تطلق إلا على الإنسان الحيّ إذ عند الوفاة تُجْتَبَى النفس والروح معا وتبقي الجثة. وهو ما يوضح لنا أن يوم القيامة سيحدث ونحن أحياء على الأرض لنرى ونعاني أهوالها التي لا يزال البعض منّا يستهين بها. وبعد وقوعها نطالع التفاصيل بإيجاز شديد في سورة "الانفطار": {إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (4)}.. وعندما يحدث كل ذلك الانفجار في الكون {عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}. النفس وليس الإنسان، لأنه سيكون قد انتقل من جراء هذه الأهوال، لتبدأ عملية فرز الأبرار من الفجار في يوم الدين، {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}..

## النفخ في الصور

وردت عبارة "النفخ في الصور" عشر مرات في القرآن. وأول ما يلفت النظر فيها أنها مرتبطة بما سبقها وما يليها من آيات، كما أنها تتضمن ملامح من ملامح ذلك اليوم الرهيب. ففي سورة "الأنعام" (آية 73)، وهي أول مرة ترد فيها الإشارة إلى النفخ في الصور، نجد قبلها التنبيه إلى عدم إتباع الشياطين وأن نقيم الصلاة ونسلم أمرنا لرب العالمين وأن ننقيه فإليه سوف نُحْشَر. وتتضمن الآية الإشارة إلى خلق السماوات والأرض بالحق وأن الله له الملك يوم يُنفخ في الصور. وبعدها نجد تطبيقا لما سبق الآية وقول سيدنا إبراهيم لأبيه ونهره هو وقومه لعبادتهم الأصنام وأنهم في ضلال مبين.

وفي سورة "الكهف" (آية 99) نطالع: {وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۗ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا}. ونطالع قبلها قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج المفسدون في الأرض، وبناء السد الذي ما استطاعوا أن يعلوه بالصعود. وظلوا يموج بعضهم في بعض حتى نُفخ في الصور. ويأتي بعدها عرض جهنم على الكافرين عرضا حقيقيا بناء على وجود المفعول المطلق في الآية، أولئك الذين لا يذكرون الله ولا يسمعون، بل كانوا يتخذون من عباد الله أولياء لهم. لذلك أعدّ لهم جهنم نزلا.

ونطالع في سورة "طه" (آية 102): {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}، وقبلها تأتي قصة السامري وقبضته قبضة من أثر الرسول وفقا لما سؤلت له نفسه؛ وإخطاره بأن الإله الذي ظل عاكفا عليه سوف يحرق وينسف نسفا. وإن الله عز وجل قد أتى موسى ذكرا وأن من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا. ثم نطالع في آية النفخ في الصور أن المجرمين الذين لم يتبعوا الذكر قد تم حشرهم زرقا، أي وقد ابيضت عيونهم وتعشى سوادها بياض من الهول وهم يتساءلون عن مدة بقائهم في الأرض، فهي عشرة أيام أم يوما واحدا. ومن الواضح أن الحوار فيما بينهم قد امتد وتشعب وتناول العديد من الأشياء حتى أنهم راحوا يتساءلون عن الجبال، من ضمن ما تساءلوا حوله. ويأتيهم الرد بأن الله ينسفها نسفا فيزرها قاعا صفصفا! وهو ملمحا مما سيحدث من أحداث يوم القيامة.

فيومئذ يتبعون الداعي وتخضع الأصوات للرحمن ولا تسمع إلا همسا. ويومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي عنه وسمح له بالكلام. وخضعت الوجوه للحي القيوم، ومن عمل السيئات خاب مصيره ومن عمل الصالحات لا يخاف ظلما.

أما في سورة "المؤمنون" (الآية 102) التي تتناوب فيها ما أنعم الله به على الإنسان من نعم وملمح من ملامح يوم القيامة وما سيحدث فيه، ورغم ما ينسى الإنسان ويكرر ما وقع فيه السابقون. ويبين المولى ما أتاهم بالحق من التوحيد والوعد بالبعث والحساب والثواب، ورغم ما يفترون على الله ويشركون به ويجعلون له ولدا سبحانه. ويظل المرء منهم في عناده إلى أن يأتيه ملك الموت فيطلب العودة لعله يعمل عملا صالحا. غير أن النهاية هي حتمية إلى يوم يُبعثون: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ} (آية 101). فمن كثرت أعماله الصالحة أولئك هم المفلحون، ومن خفت عنده تلك الأعمال فأولئك هم الذين خسروا أنفسهم وفي جهنم خالدون. ويتكرر عتاب الرحمن بينما تلتفح النار وجوههم: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُنلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ}؟. ويعترفون بضلالهم ويتمنون الخروج مما هم فيه..

وتؤكد آية النفخ في الصور الواردة في سورة "النمل" ما طالعناه في بعض النقاط الأخرى بوضوح من أن الكرة الأرضية ليست هي كل ما في الكون، وأن هناك السماوات وبها أناس وكائنات سوف تفرح من تلك الصيحة مثلهم مثل من في الأرض. ثم ننتقل إلى الآية المتعلقة بالنفخ في الصور: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ} (آية 87). أي أن هناك من سيجميه الله من تلك الفزعة.

وتسبق الآية ملامح من قصة موسى وسليمان وملكة سبأ وقومها الذين يعبدون الشمس. كما يرد بها ملامح من قصة صالح ولوط، بل حتى تكرار تساؤل البعض حول البعث وإعادة الموتى إلى الحياة، إلى حياة في تجسد جديد: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاءُنَا أُنَبِّئَا لِمُخْرَجُونَا (67) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (68)}. إلا أن البشر لم يدركوا حتى معنى أن الله قد جعل النهار لنعمل والليل لنستكين، يتخللها التعبد بما فيه من فروض أو تهجد.

كما نلمح ملمحا جديدا مع تداخل عدة عناصر في الأحداث وحوارها أو مشاركتها، كخشية النمل من أن يحطمها سليمان، والهدهد وما أحضره من أنباء، ومارد من الجن وإمكانية جلبه العرش، وكأن مختلف المخلوقات كانت تعيش من قبل في حوار وتداخل وتعاون، ثم تم فصلها عن بعض أو إن إمكانية التواصل فيما بينها قد توقفت بسبب عنادها وتمسكها بالماديات والابتعاد عن تنمية ملكات الجانب العبادي والروحي.

كما نجد ملمحا جديدا آخر متعلق بمجال الغيب وهو إمكانية نقل الأشياء من أماكنها، وهو المعروف بعبارة "المجلوبات". وتفسيرها العلمي هو القدرة على تحويل الشيء إلى ذراته الأولى ونقلها بسرعة أسرع من سرعة الصوت أو الضوء، ثم إعادة تجميعها في لمح البصر. إذ نطالع بعد آية النفخ في الصور الواردة في سورة "النمل": {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ}، استشهاد الجبال التي نحسبها جامدة وهي في الواقع تتحرك وتمر مر السحاب، وبما سيحدث من حساب لكل ما نقوم به من أعمال حسنة أو أخطاء. ثم نطالع لأول مرة في هذه المجموعة من الآيات المتعلقة بالنفخ في الصور، توجيه الحديث للنبي عليه الصلاة والسلام بأن يقول: أنه أمر ان يعبد الله وأن يكون من المسلمين وأن يتلو القرآن ويعرّف به، فمن اهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فعليه نتيجة عمله واختياره.

أما في سورة "يس" التي تبدأ بقسم الله عز وجل بالقرآن ان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من المرسلين لقوم غافلون، فندرك منها أننا انتقلنا إلى أجيال قوم أقرب إلى عصورنا. وأنهم أيضا لا يؤمنون بأي آية تأتيهم ويعرضون عنها، ولا يؤمنون بأي رسول يُرسل إليهم بل يهددونه بالرجم! وجاءهم رجلا من أقصى المدينة ينصحهم باتباع الرسل فقتلوه، ودخل الجنة بعمله الصالح. كما يرفضون الإنفاق مما رزقهم الله، ويكذبون بالوعد. {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ} (آية 51).

فيتساءلون فرعين عنّ بعثهم من مرقدهم وإن هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون.. فما هي إلا صيحة واحدة فإذا هم جميعا مُحضرون عند رب العالمين.. محضرون الي ذلك اليوم الذي لا تُظلم فيه نفس ولا تُجزى إلا ما كانت تعمل. ويطلعنا المولى سبحانه على شيء من التفاصيل التي توجد في حياة الجنة، وعلى



شيء من عذاب جهنم. كما يرد اعتبار نبينا الكريم موضحا أنه ليس بشاعر مجنون، كما سبق واتهموه، وإن هذا القرآن قد أنزل لكل من كان حيا ويحق القول على الكافرين، الذين كفروا به ولا يصدقون ما جاء به من آيات معجزات وتعاليم ومعلومات. بل اتهموا القرآن بالسحر والكذب. مثلما كذبت من قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة.. جميعهم كذب بالرسول واتخذوا آلهة من دون الله فحق عليهم العقاب.

ويذكرنا رب العزة ببعض ما أكرمنا به وكل ما لنا فيه منافع ومشارب فلا يشكرون بل اتخذوا من دون الله آلهة لعلهم يُنصرون. وتنتهي سورة "يس" بنفس ذلك الإصرار الغريب على إنكار إعادة التجسد بعد أن نسي خلقه وقال { مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ }؟ ويأتي الرد سريعا واضحا: { قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۗ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۗ بَلَىٰ ۗ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) }. والخلاق لغة تعني الدائم الخلق.

وأهم ما يلفت النظر في هاتين الآيتين عبارة "أول مرة" في الآية 79 التي تؤكد أن هناك نشأت أخرى، وأن الله عليم بكل خلق يخلقه. فالخلاق، الدائم الخلق للبشر، سواء بإعادة تجسد نفس الروح أو خلق أرواح جديدة لتتواصل عملية الخلق وعملية تطور وتقدم الأرواح والأنفس.

وتتميز سورة "الزمر" بمزيد من التفاصيل في الدعوة الى التوحيد بالله ويتهم صراحة الذين اتخذوا أولياء من دون الله، وإن الله لا يهدي من هو كذاب كفار، أي دائم الكذب ودائم الكفر، فهما متساويان. { لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ } (آية 4). أي إنه هو الذي يختار إن شاء سبحانه وليس بعض الأنفار من البشر هم الذين يلصقون به أياً منهم !

إن أولئك الكذبة الكفرة قد جعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله. فليتمتعوا بكذبهم وبكفرهم فهم من أصحاب النار.. وتتناوب أحداث السابقين وملاحم من خلق الله. وقد ضرب في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون، علما بأن الله عز وجل قد أنزله قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون. بل إن تلك الآلهة التي يعبدونها من دون الله لا يمكنها منع الضرر الذي يفرضه الله سبحانه أو منع رحمته عن أي إنسان.

ولأول مرة في هذه المجموعة من آيات النفخ في الصور تأتي النفختان في آية واحدة: { وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ط ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ } (آية 18)، لتوضح لنا أن الصعقة ستطول من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله. وعند النفخة الثانية إذا بهم

قيام ينظرون. فنتوالى مشاهد المحاسبة، فيوضع الكتاب وحيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق، ووفيت كل نفس ما عملت، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا وسيق الذين اتقوا ربهم زمرا، وكلا من الفريقين تم استقباله بما يستحق من عتاب أو تكريم.

ونطالع في سورة "ق" التي تتناوب فيها بعض آيات خلق الأرض وتكذيب البشر لما يروه. ويتوالى قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع، وجميعهم كذب الرسل فحق عليهم وعيد رب العالمين وهم في لبس من خلق جديد (الآية 15). وجاءت سكرة الموت بالحق فذلك ما يحيد عنه البشر. {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ} (الآية 20).

ونطالع بعدها بشيء من التفصيل ان كل نفس تأتي ومعها سائق وشهيد، وأنه إن كانت فيما مضي في غفلة عما يحدث رغم التحذير، فإنها في ذلك اليوم يُكشف عنها الغطاء فبصرها اليوم حديد. وألقي في جهنم كل كقار عنيد مَناع للخير معتد مريب. ذلك الذي جعل مع الله إلهًا آخر. وهنا نجد مرة أخرى إشارة الى عدم الإنفاق ومنع الخير والوقوع في الشرك بالله.

ومن اللافت للنظر أن نطالع مزيدا من التفاصيل في سورة "الحاقة" رغم قصرها نسبيا وقصر آياتها. فقد كذبت ثمود وعاد بالقارعة. وأهلكت ثمود بالصاعقة، أما عاد، وهنا نطالع تفاصيل ريح صرصر عاتية {سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّن بَاقِيَةٍ (8)}؟ وتمادي فرعون ومن كانوا قبله، وبعده المؤتفكات، وجميعهم أتوا بالأفعال الخاطئة وعصوا رسول ربهم. {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ} (آية 13) تُرفع الأرض والجبال لتدك دكة واحدة. عندئذ تكون وقعت الواقعة وقامت القيامة. فتنشق السماء والمَلَكُ على أطرافها ويحمل عرش الرحمن فوقهم ثمانية، ويبدأ عرض الأعمال. ومن أوتي كتابه بيمينه يقول مطمئنا {هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيَةَ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَةَ (20)}. ويتبعه وصف حياته في جنة عالية قطوفها دانية. أما من أوتي كتابه بشماله فيتمنى أنه لو لم يتسلمه ومات موة قاضية، أي لا يصحو بعدها. ونطالع أيضا وصف إدخاله في الجحيم لأنه {إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ} (آية 33 و34).

ويقسم المولى بما نبصر وما لا نبصر، وكأنه حتى في يوم القيامة ويوم الحساب ستظل هناك أمورا نراها وأخرى مغيبية عنا. وهذا القسم خاص بالدفاع عن القرآن وأنه قول رسول كريم، وأنه ليس بشاعر أو كاهن يرتجل ما يشاء. إنه تنزيل من رب العالمين. {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47)}. أي إن الرسول عليه الصلاة والسلام لا

يمكنه أن يحيد عن نص الرسالة المكلف بها، ولو افترى ببعض الأقوال لقطع له الله نياط القلب ليهلك بأشع طريقة. فالقرآن من رب العالمين، والرسول المشهود له بالأمانة يحمل أمانة تبليغه كتذكرة للمتقين، فالقرآن حق اليقين وسيكون حسرة على الكافرين.

أما في سورة "النبأ"، وهي آخر سورة يُذكر فيها النفخ في الصور، فتبدأ بتلخيص شديد لعملية الخلق التي ترد في كلمات شديدة الإيجاز حتى يوم الفصل في الآية 17. ويوم الفصل هذا هو: {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا} (آية 18). وكلمة النبأ يُقصد بها تساؤل أهل مكة المشركون عن البعث الذي يتشككون فيه ويسألون عنه الرسول استهزاءً. فيكون موعدهم يوم الفصل حين يأتون أفواجا. وتُفتح السماء لتكون أبوابا وتسير الجبال حتى تصبح سرايا، وتكون جهنم لهم مرصدا، لابئين فيها أحقابا. أما المتقين فسوف يفوزون بالحدائق، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذبا، جزاءً وعطاءً من رب السماوات والأرض وما بينهما. فذلك هو اليوم الحق، لقد وعدنا الرحمن وأندرنا من يوم {يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا} (آية 40).

ولا يتوقف موضوع "النفخ في الصور" بتلك الآيات العشر، وإنما يتواصل في ثلاث سور أخرى هي: "الصفات"، و"المدثر"، و"النازعات". يتواصل بعبارات مختلفة هي: الزجر، والنقر، والرجف. والزجر هو النهي أو الردع للإنسان؛ والنقر/الناقور هو الصور الذي ينفخ فيه الملك والذي ينفخ فيه للحشر ويعني النفخة الأولى؛ والرجف هو الزلزلة، ترجف الراحفة أي النفخة الأولى، تتبعها الرادفة أي النفخة الثانية. والنفخة الأولى كما تقول التفاسير هي التي تموت لها الخلائق، والرادفة الثانية هي التي يحيون لها يوم القيامة.

وتبدأ سورة "الصفات" بالقسم بالملائكة المصطفين للعبادة والزاجرين للشيطان محددين مؤكدين ان إلهنا إله واحد، ثم مروراً خاطفا ببعض آيات الخلق وصولاً إلى الإنسان الذي خلقه الله من طين لازب. وذلك الإنسان الذي يسخر ويستسخر، أي يباليغ في السخرية بأن ما يُعرض عليه هو سحر بمين قائلا: {وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدًا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَا لَمَبْعُوثُونَ} (آية 16 و 17)؛ ويأتي الرد فوراً في الآية التالية: {قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ} (آية 18)، أي وأنتم مرغمون.

ثم ينتقل المشهد إلى يوم القيامة {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ} (19) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21)}. وتبدأ عملية فرز الأعمال وحشر الذين ظلموا وأمثالهم وما كانوا يعبدون من دون الله إلى صراط الجحيم. ويبدأ الحوار واضحاً فيما بين الذين ضلوا والذين أغوهم ليزوقوا العذاب الأليم. ونرى بنفس الوضوح ما سوف يحدث لعباد الله المخلصين، المحميون من الخطأ، وما سينعمون به في جنات النعيم.

وهنا تحديداً، في الجنة، أقبل بعضهم على بعض يتساءلون: {قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَأَتَكَ مِّنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَدِينُونَ} (آيات 51 - 53). أي ذلك الذي في الجنة يسأل ويقول إنه كان له قرين يسأله هل تصدق بأننا إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أينا لمدينون، أي سنحاسب؟ وعند البحث عنه، عن ذلك القرين، وجدوه في سوء الجحيم! ويعود ليتساءل: {أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (58) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (59) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (60)}. ونفهم من هذا الحوار ان من يلتزم بقول الله وتعاليمه في الحياة الدنيا ويدخل الجنة، لا يعود إلى الأرض ولا يموت إلا موته الأولى ولا يُعذب. فذلك هو الفوز العظيم ولمثل هذا ليعمل العاملون.

أما كلمة "النقر" فنطالعها في سورة "المدثر": {فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9)}. والناقور هو الصور الذي ينفخ فيه الملك والذي يُنفخ فيه للحشر، ويعنى النفخة الأولى.. والحديث قبل هذه الآيات موجه للنبي عليه الصلاة والسلام، يحثه المولى عز وجل على مواصلة الدعوة للرسالة التي اختاره لها، ويطلعه فيها على اليوم العسير الذي ينتظر الكافرين بكتابه. ثم تأتي الآية لتحيطه علماً بما سيحدث، وأن الله سيتولى أمر ذلك الإنسان المكابر، الذي خلقه الله وحيداً، فريداً متفرداً، لا نظير له كمخلوق. فلكل فرد مآلاً بصمته وروحه المستقلة، التي ألزمها الله في عنقه. وقد رزقه الله مالا ممدوداً وبنين شهوداً، يشهدون له أو عليه، ومهد له تمهيداً حقيقياً، وإذا به يطمع ويطلب المزيد!

ويأتي الرد بالنفي القاطع، فلقد كان عنيدا لآيات الله، وأنه فكر وتدبر أكثر من مرة، واعتبر القرآن سحر وكلام بشر. لذلك كانت سقر، نار جهنم اللواحة للبشر، هي مصيره.

أما كلمة "الرجف"، وهي الكلمة الثالثة المستخدمة للتعبير عن النفخ في الصور، وتعنى الاضطراب الشديد، والردف، في الآية التي تليها والمرتبطة بها، تعنى ما يتبع الشيء، مقصود بها النفخة الأولى، وتتبعها الرادفة، أي النفخة الثانية. ففي ذلك اليوم، {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ (7) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (8) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} (النازعات)، تضطرب فيه الأجرام، وتتبعها النفخة الثانية. وفي ذلك اليوم تقف القلوب مضطربة قلقاً، مطأطئوا الرؤوس وقد خشعت أبصارهم. والخشوع يكون في البدن والصوت والبصر. بل حتى الأرض بكلها ستكون خاشعة، وذلك من آيات الله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً} (فصلت 39) متعبرة متهشمة. ويقول المولى "قلوب"، ولم يقل عقلٌ أو نفسٌ فالقلب هو جوهر الإنسان والمحرك له. فعبارة "قلوب مضطربة" دليل واضح على أهمية دور القلب.

ونطالع فيما يسبق الآية المعنية، حركة دائبة النشاط للملائكة، وذلك يوم تضطرب فيه الأجرام، الاضطراب الشديد الناجم عن النفخة الأولى. ثم تتبعها النفخة الثانية. لكن عما تتساءل تلك القلوب المضطربة المنكسرة الهلعة؟: {يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (10) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً (11) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (12)}. أي إن ذلك الاضطراب والهلح من خشية إعادتهم للأرض مرة ثانية، أي إعادة تجسدهم من جديد. وما كادوا يُفجعون من فكرة عودتهم إلى الأرض وتجسدهم من جديد حتى نطالع في الآية التالية: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)}.. إذا بهم في تلك الدنيا التي لم يفلحوا في امتحاناتها المتتالية، ووقع عليهم إعادة الكرة، حتى إذا كانت "كرة خاسرة"، سوف تعاد وتعاد إلى أن يفهم الإنسان ان حقيقة المقصود من وجوده على الأرض هو العمل على ما استخلفه الله له، وأن عليه إعمار الأرض والترقي كإنسان وروح بالعمل الصالح والتعبد والتسليم لله رب العالمين.

ولو أمكننا تلخيص أهم ما نخرج به من معلومات من آيات "النفخ في الصور" لوجدنا من خلال سرد قصص الأمم التي مرّت قبلنا بإيجاز شديد، وصولاً إلى عصر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، أن من يعرض عن القرآن ولا يلتزم بتعاليمه، ومن يمتنع عن فعل الخير ولا ينفق - وقد رأينا معنى الإنفاق وأنه العطاء من كل ما نعرف ونملك، وليس المال فقط، ومن يتخذ أولياء من دون الله أو يشرك به أو يجعل له ندا أو ولداً، ومن يرفض فكرة البعث بعد الموت أو إعادة التجسد في خلق جديد، يلقي حسابيه يوم يُنفخ في الصور ويرى كتاب أعماله منشوراً..

كما تتوالى بهذه الآيات بعض التفاصيل عن الجنة والنار، وأن من عمل صالحاً يكافأ به ومن ضل يعاقب بعمله سواء بالعودة إلى الأرض أو البقاء أحقاباً في نار جهنم.

## يوم الحشر

ترتبط آيات الحشر بيوم "النفخ في الصور" بحكم أنها تستكمل تفاصيل الموضوع، فبناء على النفخ في الصور تتم الصحوة ليبدأ الحشر، إذ {يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ} (سبأ 26). لذلك ينصحنا المولى عز وجل بأن نتسابق في الخيرات، في فعل الخير، فذلك هو المعيار الذي سيتم التقييم بناء عليه. كما نصحنا أن نتقي الله فإليه سوف نحشر، لأنه هو الذي سيحشرنا جميعاً، وجميعنا آتية يوم القيامة فرداً، يوم الجمع. فذلك هو يوم التغابن. أي اليوم الذي يغبن فيه أهل الجنة أهل النار بما يصيرون إليه من نعيم، ويلقى أهل النار عذاب الجحيم.

ويوم الحشر هذا هو اليوم الذي سيتم فيه جمعنا والأولين. وفي ذلك اليوم تتبدل الأرض غير الأرض وكذلك السماوات، وتتحرك الجبال وتتباعد حتى تبدو كالسراب، ونبرز جميعا للواحد القهار. ففي ذلك اليوم لا يخفى على الله أي شيء، فالملك له سبحانه الواحد القهار. والقهر هو الغلبة والأخذ من فوق، والقهار للمبالغة في الفعل، لأنه الغالب لجميع الخلق. وعندما يجمعنا لذلك اليوم، ليوم التغابن الذي يتم فيه تقييم الأعمال فيما يتعلق بفعل الخيرات والشرك بالله، يبدأ يوم الحشر بزجرة واحدة. فإذا بالخلق ينظرون فزعين قائلين { وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (20) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (21) } (الصفات).

فيصدر الأمر الإلهي بوضوح { أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23) }. وكلمة "وأزواجهم" هنا تأخذ معنى "وأمثالهم"، أى مختلف الذين انسقوا وأشركوا بالله مثلهم.

وفي ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتا ليرؤا أعمالهم، يوم يحشر الله جميع الخلق ويقول للذين أشركوا أنهم في مكانهم، هم وشركائهم، ثم يسألهم عن أولئك الشركاء الذين كانوا يزعمون. ويحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآيات الله، يحشرهم وما كانوا يعبدون من غير الله.

ونطالع في سورة "يونس" وصفا للحظة اللقاء ومحاولة التعارف فيما بينهم وهم يتساءلون عن المدة التي مكثوها في الأرض. فتبدوا لهم وكأنهم لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم. وكأن من بين ما علينا عمله في هذه الدنيا هو أن نتعارف ونتعاون، وأن نحاول التوصل الى الذين هم من "سابق معرفة"، حيث كنا في عالم الغيب قبل تجسدنا. وهو ما يشير إلى ذلك الشعور بسابق المعرفة أو بالألفة تجاه بعض الأشخاص حين نلقاهم، أو الشعور بالرغبة في الابتعاد والتباعد. وهو ما أعرب عنه نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام حين قال: "الأرواح جنود مجندة، من تعارف منها ائتلف، ومن تنافر منها اختلف".. وهو ما يثبت، من ناحية أخرى، أننا جنود مجندة نحمل رسالة إعمار الأرض وما عليها، وليس لخرابها وتدميرها بالحروب والتطاحن.

وكم من مرة يحدثنا القرآن الكريم أن نتقى يوما نرجع فيه إلى الله، مأمورون بالرجوع، مثلما تؤمر بكل الأفعال التي يأمرنا أو يكلفنا بها المولى عز وجل.. فعندما تتم بعثرة ما في القبور ويتم تحصيل ما في الصدور، ويكون ربنا خبيرٌ بكل كبيرة وصغيرة اقترفناها، يجمع الرسل ليسألهم عن استجابتنا لدعوة كل رسول. ويترك الله بعضنا يومئذٍ يموج في بعض ثم يجمعنا جمعا. أى يجمعنا جمعا حقيقيا، بحكم استخدام صيغة المفعول المطلق الذي عادة ما لا يلتفت إليه أحد.

ونطالع في سورة "إبراهيم" حوار له مغزاه بين فرق من البشر حين يقول الضعفاء للذين استكبروا، للرؤساء الأقوياء المتكبرين بمراكزهم: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ؟}. هل أنتم مدافعون عنّا أمام الله؟ فنطالع الرد الواقعي كما يحدث في الدنيا بين البشر: لو هدانا الله لهديناكم، فما لنا من مهرب من العذاب! لذلك نطالع في سورة "طه" {وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} (آية 124).

وفيما يتعلق بيوم العرض، حين يُسير الله الجبال حتى تتباعد وتصبح كالسراب ونرى الأرض بارزة، وقد حشرنا الله ولم يغادر منا أحدا، توجد جزئية تؤكد إعادة الخلق خلقا جديدا، أي إعادة التجسد. فالآية 48 من سورة "الكهف" تقول: {وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا}. وعبارة "كما خلقناكم أول مرة" تعني يقينا أن هناك مرات أخرى تم خلقنا فيها وإلا لما قال الله عز وجل {كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ}.

وسوف نُعرض على الله فرادى، كل فرد مسئول عن نفسه، فرادى كما خلقنا أول مرة، ويوضع الكتاب، {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا} (49) {الكهف}. ولو رجعنا الى سورة "الأنعام" نطالع: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (آية 27). وكلمة "نرد" هنا تعني أن يعودوا إلى الأرض مرة أخرى لكيلا يكذبوا بآيات الله ويكونوا من المؤمنين. ويجب رب العزة العالم بمن خلق {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (الأنعام 28).

ويعاد نفس المعنى في نفس سورة الأنعام في الآية 94: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}.

أما الإضافة اللافتة للنظر والتي نلاحظها في جزئية "الحشر" أننا سنحشر في يوم الحساب نحن والجن معا! سنحشر في ذلك اليوم الفاصل بين المؤمنين ومن تعالى وتكبر بل واشتمز قلبه من مجرد ذكر الله {وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} (128) {الأنعام}. ويتواصل اللوم للفريقين، لمعشر الجن والإنس {يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ

عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ { (آية 130).

لقد غرتهم الحياة الدنيا ولم يلتزم الإنسان بذلك الذي يذكره برفض إبليس السجود لآدم، بل وَعَدَ رب العزة أن يغوى ذلك الإنسان المخلوق من طين ويوقعه في حباله. ومنحه الله القيام بهذه التجربة موضحا له أنه لن يقوى على عباد الله المخلصين. وتتواصل الحياة وتتعاقب الأمم، وفي يوم الفصل شهد الذين ضلوا على أنفسهم بأن الحياة الدنيا قد غرتهم، وشهدوا بأنهم كانوا كافرين..

وطلب العودة الى الأرض ليصلحوا من أخطائهم ويكونوا من المؤمنين، يعود بنا إلى فترات خلق آدم وكيف علّمه الله الأسماء كلها. والأسماء هنا تأخذ ضمنا معنى المعلومات والمعارف. وأن يطالب الذين وقفوا على النار بالعودة، وهم في مجال "العالم الآخر"، فذلك يشير إلى أنهم على الأقل كأرواح يعلمون بإمكانية العودة الى الأرض في خلق جديد. وهو ما نراه بوضوح في العلوم الروحية الحديثة.

والمعلومة التي تستوقف الانتباه في هذه الجزئية، تلك التي نطالعها في الآية 130 من سورة "الأنعام": {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟! أي أن هناك رسل أنت لكل فريق من الجن والإنس ولم يلتفتوا لتلك الرسل. بل ان ذلك الاختبار الذي طلبه إبليس قد تعرض له الأنبياء أيضا. فهو ما نطالعه في الآية 112 من نفس سورة "الأنعام": {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ}.

ومن الواضح والمؤكد ان النظام الإلهي واحد لكل خلقه. يخلق ما يشاء من الجن والإنس ومما لا نعلم، ويعتد الرسل ليهدهم الى الطريق المستقيم، الى الإيمان بالله وعدم الشرك به.. وتتفاوت نفس ردود الأفعال والتصرفات في دنيا ما أسهل أن تبتلع الخلق في متاهاتها، إلا من تمسك بتعاليم رب العزة سبحانه.

## يوم الحساب

ترد تنويحات معنى كيفية المحاسبة في القرآن الكريم حوالي خمسون مرة. وندرك منها "إن الله أسرع الحاسبين"، و"شديد الحساب"، و"يعذب عذابا نكرا"، إلا أن عبارة "سريع الحساب" هي الوحيدة التي ترد ثماني مرات. والسرعة هنا مثلها مثل كل ما هو متعلق بالزمن في مجال الغيب أو في القرآن فهي سرعة



مجازية الطول أو القصر. فقد تعنى فورا، أو بعد فترة، أو في العالم الآخر.. غير ان الحساب عام شامل يقع على الجميع ولا مفر منه. ولعل الآيات الأولى من سورة "الأنبياء" تثبت وتوضح لنا معنى هذه النسبية: {اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون (1) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون (2) لاهية فلوبهم وأسروا النجوى}. فنحن هنا في زمن وحي القرآن، أي في مطلع القرن السابع الميلادي، ويقول الله "اقترب للناس حسابهم"، ونقرأه أيضا في القرن الواحد والعشرين بنفس المعنى: {اقترب للناس حسابهم}. وهو ما يوضح لنا معنى هذه النسبية في الزمن.

أما غيرها من الآيات المتعلقة بيوم الحساب، فنتبين منها، من ناحية، مرور الأمم وتعاقبها، إذ ستكون {كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون} (الجاثية 18) ؛ ومن ناحية أخرى ما سيكون عليه الحساب إجمالا، مثال:

1 - {وَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا (8) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (10)} (الطلاق) ؛

2 - {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبَدُّوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُو لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة 284) ؛

3 - {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (12)} (الانشقاق) ؛

4 - {لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۗ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ} (الرعد 18).

ولو اختصرنا مضمون هذه الآيات لرأينا مصير الأمم التي سبقتنا وكانت عاتية فأعد لها الله عذابا شديدا، وكيف أنه في يوم الحساب لن تتمكن أي نفس من التحكم في إخفاء أو عدم البوح بأعمالها لأنها مسجلة ولا فرار من مواجهتها. فمن أوتي كتابه بيمينه سوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا بهذا النجاح. ومن أوتي كتابه بيساره أو خلف ظهره، وهو الأسوأ، فسوف يصلى سعيرا. أي أن من استجاب لربه الحسنى ومن عصى أمره وتعاليمه فمأواه جهنم.

والفرق بين الكتابين، كتاب الأبرار وكتاب الفجار، إن كتاب الأبرار في عليين، يشهده المقربون وهم في نعيم ينتظرون من سينضم إليهم من الناجين. أما كتاب الفجار المكذبون بيوم الدين المعتدون الآثمون ففي سجين، وهو وادي في قاع الجحيم واسمه مشتق من السجن. وهذا الوصف يوضح لنا أن قاع الجحيم مكون من وديان وجبال وصخور، جبال شاهقة لا فرار منها مهما ارتفعت فهي كالسجن المحكم في القاع..

ولقد ألزم الله كل إنسان طائره في عنقه، والطائر هنا كناية عن الروح، والإنسان مسؤول عن كل ما يقوم به من أفعال واختيارات، بينما الكاتبان الكرام يسجلان ويستسخان. فسوف نسأل جميعا عما كنا نعمل {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} (النحل 111).

كما أن كل أمة سوف تدعى بإمامها وهو ما نطالعه في سورة "الإسراء": {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (71) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (72)}. ففي ذلك اليوم لا يستطيع أي والد أن يجزى عن ولده ولن يتمكن أي مولود أن يجزى عن والده شيئا، فالحساب شخصي يقع على كل نفس بلا استثناء.

وعند وضع الكتاب ويتم إحضار النبيين والشهداء ليقضي الله بينهم بالحق سيقف المجرمون مشفقين مما فيه، متسائلين بهلع عن ذلك الكتاب الذي لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا ماثلا أمام أعينهم. وتتألق رحمة الله سبحانه وتعالى في كيفية حكمه حين نطالع في سورة "غافر" (آية 40) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ دَكْرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ. ونطالع نفس المعنى في سورة "الأنعام" (آية 160): {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}. ورغمها، ما أكثر الذين يضلون.

وعندما يصل أعداء الله إلى النار ويشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، سألوا جلودهم باستنكار: {لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا؟} ويأتيهم الرد الذي يذكرنا ضمنا بإعادة التجسد في خلق جديد: {قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (فصلت 21). ولقد وردت عبارة "أول مرة" في عدة سور، منها:

- 1 - {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ} (الأنعام 94) ؛
- 2 - {قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (50) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۖ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} (الإسراء) ؛

3 - {وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا} (الكهف)؛ (48)؛

4 - {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} (الأنبياء)؛ (104)؛

5 - {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)} (يس)؛

وعبارة "أول مرة" تعني يقينا أن هناك مرات أخرى متعددة. لذلك نطالع في نفس سورة "فصلت" (آية 27) : {فَلَنُنذِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ}، لأن الإيمان بالغيب وبعادة الخلق في تجسد جديد من أساسيات ما نخرج به من معطيات القرآن الكريم. بل هو فرض من الفروض المفروضة على كل مسلم ومسلمة. فهو القائل سبحانه: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (98)} (الإسراء).

أي إن من لا يصدق بأننا بعد الوفاة وبعد أن نصبح عظاما ورفاتا لمبعوثون خلقا جديدا يُعد كفرا بآيات الله عز وجل ونستحق عذاب جهنم. ونفس المعنى نطالعه في سورة "الرعد" (آية 5): {إِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ..

ولقد وردت عبارة "في خلق جديد" في ثمانية آيات نقلها هنا بترتيب ورودها في القرآن علّ الذين لا يزالون يرفضون الفكرة يقتنعون ليتفادوا المحاسبة والعذاب والاتهام بالكفر لعدم تصورها أو تصديقها:

\* {وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (الرعد 5) ؛

\* {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} (إبراهيم 19) ؛

\* {وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} (الإسراء 17) ؛

\* {ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} (الإسراء 98) ؛

\* {وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَأَنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ} (السجدة 10) ؛

\* {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} (سبا 7) ؛

\* {إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} (فاطر 16) ؛

\* {أَفَعَبَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ} (ق 15).

ولا يسعني تقديم برهانا على حقيقة إعادة تجسد الروح في خلق جديد، أي في جسم جديد، أكبر وأعظم من قول الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات الثمانية، التي يؤكد فيها هذه الحقيقة، بل ووصف من لا يصدقها بأنه كافر. وذلك إضافة الى آيات سورة "النجم" (45-47)، التي تنطبق كلماتها على خلق الإنسان: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَأَ الْأُخْرَىٰ (47)}. فوضوح المعنى يؤكد ان الحديث عن الزوجين، الذكر والأنثي، أي وهما في الحياة الدنيا، وأن الله عليه النشأة الأخرى.

## النار

للنار عدة أسماء في القرآن منها: جهنم، وتعني القعر البعيد ؛ والحطمة، وتعني نار الله الموقدة، النار الشديدة لأنها تحطم كل ما يلقي بها ؛ والسعير، أي النار المسعورة ؛ وسقر، الشديدة الحر والبعد وهي تذيب الأجسام من شدة حرها فهي {لا تبقى ولا تذر} ؛ والسموم، وهي الرياح شديدة الحر والحرارة. وهناك النار الكبرى التي لا يموت فيها المرء ولا يحيي..

كما نطالع في الآيات المتعلقة بها كيفية الورد عليها، والوعيد بها، والوقوف عليها، بل تخاصم أهلها مثلما كانوا يفعلون في دنياهم ويتبادلون التهم. وهناك آيات تحيطنا علما بعذاب النار، وهي أيضا متعددة الأنواع والدرجات، ففيها العذاب الأليم، وعذاب الحريق، وعذاب الخلد، وعذاب السعير، والعذاب الواصب، أي شديد التعب والدائم، والعذاب الكبير، والعذاب الغليظ، والعذاب المقيم بل والعذاب المهين. وكأن كل ما تقدم ليس بكافٍ ألما ومهانة ! وذلك بخلاف ما يرد حول عذاب الدنيا التي لها أنواعها ودرجاتها التي مرت بها الأمم..

وما أكثر الأسباب التي تدفع بمن اقترف المعصيات ليكون مصيره النار، فهناك الخونة، والذين يكذبون بالنار، والذين يلحدون في آيات الله، والذين لهم الخسران المبين، والذين فسقوا، ومن جاءوا بالسيئة، ومن خفت موازينهم وخسروا أنفسهم، والمجرمون الذين سيقرون في الأصفاذ وسرايلهم من قطران وتعشي

وجوههم النار؛ والذين ظلموا، والغافلون.. أما المنافقون ففي الدرك الأسفل من النار، ومعهم الذين يكثرزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، فثُحِمى عليهم نار جهنم وتكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم جزاء ما كانوا يكثرزون، ومعهم الذين يأكلون الربا ويستبيحونه.

أما من يكذب بآيات الله ويعصي الله ورسوله فلهم نار جهنم خالدين فيها، لهم فيها زفير وشهيق {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}. وذلك هو الخزي العظيم. أما من يصدون عن سبيل الله فلهم عذاب مهين، ولن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا. لذلك يوضح الله في هذه الآيات أن من يجمعون المال لأنفسهم سيعذبون في الحطمة، وهي نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة وهي عليهم موصدة بعمدٍ ممددة. وهي آخر مرة ترد فيها كلمة نار في ترتيب المصحف.

ونفهم من الآيات المتعلقة بسيدنا إبراهيم أن الله سبحانه وتعالى متحكم في النار وفي درجات اشتعالها، وعندما طالب قوم سيدنا إبراهيم بأن يُقتل أو يُحرق في النار أمرها الله بأن تكون بردا وسلاما، فأطاعت، وأنجاه من عذابها بل وبارك من في النار ومن حولها. فالخطاب وحيا وأمرًا واصل من رب العالمين لمن خلق.

واللافت للنظر أن أكثر الآيات المتعلقة بالنار وعذابها تتعلق بالمشركين الذين غرّهم في دينهم ما كانوا يفترون. وتتركز التهمة الكبرى التي يعاقبهم الله عليها في تأليههم السيد المسيح، وقولهم إن الله هو المسيح بن مريم، بل وجعلوا لله أندادا. لذلك يعتبر الله الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين شرّ البرية، ومصيرهم نار جهنم خالدين فيها. فالذين كفروا بآيات الله هم أصحاب المشئمة وعليهم نار موصدة. بل لقد لعنهم الله وأعد لهم سلاسل وأغلالا وسعيرا..

ونطالع في سورة "الأحقاف" (آية 34) ما سوف يحدث لهم من عذاب يوم يتم عرض الذين كفروا على النار ويسألهم رب العالمين: {أليس هذا بالحق}؟ قالوا {بلى وربنا} قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون. فلقد أذهبوا طيبتاتهم في حياتهم الدنيا واستمتعوا بها. أما اليوم، يوم الحساب، فيجزون عذاب الهون بما كانوا يستكبرون في الأرض بغير الحق وبما أنهم كانوا يفسقون. لذلك حدد لهم نار جهنم، لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف من عذابها. فذلك عقاب كل كفور، مبالغ في كفره. كما أن الذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم. ونطالع في سورة "أل عمران" ثلاث آيات متفرقة توضح لنا مصير هؤلاء الذين كفروا وأشركوا بالله:

1 - {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ} (آية 10)؛

2 - {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} (آية 24)؛

3 - {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (آية 116). وتكرار عبارة أنه "لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم" توضح أنه لا خلاص ولا فدية ولا مساعدة أو شفاة من أي نوع ولا من أي أحد، وذلك لشركهم بالله أو لتأليه السيد المسيح.

أما المسرفين والذين كفروا وكذبوا بآيات الله واستكبروا عنها، ومن يساوي بين البيع والربا والذين كفروا بآيات الله، ومن كسب سيئة وأحاطت به خطيئته، ومن يصد عن سبيل الله، وما أكثر المجالات، فكل هؤلاء سيحاولون الخروج من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم.. (المائدة 37). أما {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أَوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (البقرة 174). أولئك هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى، واشتروا العذاب بالمغفرة، فما أصبرهم على النار..

وترد كلمة "سقر" أربع مرات في القرآن، لتوضح لنا أن من يردها فهو في ضلال وسُعر: {يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ دُوفُوا مَسَّ سَقَرَ} (القمر 48). وتتساءل عن تلك النار التي لها اسم خاص بها، ونطالع الرد سريعاً: إنها {لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ} (28) لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30) وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (31) كَلَّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلَ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحَ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) { (المدثر). ثم نطالع أحد الحوارات الموجزة التي يتميز بها أسلوب القرآن الكريم، حيث أصحاب اليمين يتساءلون عن المجرمين و عما سلكهم في سقر. وتأتي الإجابة بإيجاز بسيط يلخص أهم النقاط التي تؤخذ على من يحيد عن تعاليم الله: {قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (43) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ (44) وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (45) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (46) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (47)} (المدثر). واليقين هنا بمعنيها: الموت والتأكد من الخطأ أو الصواب.

واللافت للنظر في الآيات المتعلقة بالنار، خاصة بالسعير، جمعها بين الجن والشياطين والإنس، ووقوفهم جميعاً على النار. وذلك على الرغم من أن الله قد حذرنا بوضوح من {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا} إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ { (فاطر 6). بل سبق وأوضح لنا سبحانه وتعالى أنه قد زين السماء الدنيا بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين وأعد لهم عذاب السعير. وكذلك للذين كفروا بربهم، وإنه إذ ألقوا جميعاً فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور..

وما يوضح هذا الدمج بين الإنس والجن وتكراره في الأمم قوله تعالى: {ادْخُلُوا فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا}. وتتجلى براعة الشيطان ودهاؤه في سورة "الحشر":

{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (17)}. وعجبا لذلك الإنسان الذي لا يتعظ.. فإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه أبائنا.. وذلك حتى لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير..

وأغرب ما يستوقفنا في جزئية النار التعريف بها وكأنها كائن حي.. فحينما نطالع ما سوف يحدث للبشر الذين شقوا كرد فعل حين يُلقون في النار ونسمع لهم فيها شهيق وزفير من شدة العذاب والألم، لا نندهش فالأمر طبيعي ومنطقي. لكن الجديد والغريب بالنسبة للقارئ أن يسمع ويرى نفس رد الفعل البشري عند النار وكأنها كائن حي، فهي تشعر بالألم والإحباط بل والغیظ من ذلك البشر العنيد: {إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8)} (الملك). فالنار تشهق وهي تفور اندهاشا وتشعر بالغیظ من عناد ذلك الإنسان، وكأنها كائن حي.. بل لقد رأينا كيف أنها تفهم وتستجيب لأمر الله حين طالبها بأن تكون بردا وسلاما على إبراهيم، بنفس أسلوب الوحي والإلهام الذي يتبعه مع كل الكائنات والذي يندرج في جزئية توارد الخواطر في العلوم الروحية الحديثة.

## جهنم

جهنم اسم من أسماء النار التي يعذب بها الله عباده الذين استحقوا العذاب، وتعني القعر البعيد. ومنها بئر جهنم، أي النار بعيدة القعر. ومن اللافت للنظر، رغم اختلافنا أساسا عن عالم الجن والشياطين، إلا أننا ستجتمع معاً يوم الحساب. فهو القائل سبحانه: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} (هود 119). ونطالع نفس المعنى في سورة "السجدة" (آية 13): {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}. فمن يعصى ربه ويتبع الشيطان فإن جهنم لموعدهم أجمعين. ونطالع في سورة "الرحمن" {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَعْظَمْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (33) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٍ فَلَا تَنْنَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36) فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (38) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ (39)} (الرحمن).

وفي هذه السورة تحديدا نطالع نفس التعامل بين "الجن والإنس" في استحالة أن ينفذ أحدهما من أقطار السماوات والأرض "إلا بسلطان"، وعندما تنشق يوم القيامة لا يُسأل عن ذنبه "إنس ولا جان". وقد تم تقديم الجن على الإنس في إمكانية النفاذ إلى أقطار السماوات والأرض بسلطان؛ بينما في يوم الحساب قد تم تقديم الإنس على الجان لأنه هو الذي حمل الأمانة وهو الذي يستوجب السؤال والمساءلة لسوء اختياره واستجابته للشيطان.

ولأول مرة نطالع صفات عامة بيننا وبين الجان، رغم الاختلاف الأساسي بيننا في التكوين. فلقد خلق الإنسان من طين، من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار. فيقول المولى في سورة "الأعراف" (آية 179): {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَاقِلُونَ}. أي إن التكوين العام لنا، نحن والجان، مشابه في التفاصيل الشكلية مع اختلاف واضح في المادة المكونة لكل منا: الطين والنار. ومن اللافت للنظر أيضا ان الطين حين يُحمى بالنار يتحول إلى مادة أكثر رقيا ورقة ورهافة. فماذا عن الجان!؟

والتحذير واحد في كل الآيات المتعلقة بالإنس والجن: ألا تتبعهم ولا ننقاد لهم. ألا نتبع الشيطان، فمن يتبعه فأولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها مخلصا أو خلاصا. ومن يتبع الشيطان سيملا الله جهنم من جميع الأطراف: التابع والمتبوع، وتصبح جهنم جزاءً موفورا.. فلقد أقسم الله بذاته سبحانه أنه سيحشر الإنس والشياطين ثم سيحضرهم حول جهنم جنياً، أي على ركبهم.

ومهما اختلفت أنواع العذاب وتنوعت فإن الخلود في جهنم هو "الخزي العظيم". ويتوالى في هذه المجموعة من الآيات سرد مختلف الطبائع والتقسير ومختلف أنواع الجزاء. فالمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات والكفار بعامه لهم "عذاب مقيم"، وهم جميعا في جهنم يحشرون. والمشركين والمشركات الظانين ظن السوء، عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم، ولعنهم، وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا.

ومن يعصي الله ورسوله فهو "خالد في النار". والمتكبرين "مأواهم جهنم" سيدخلونها داخرين، مرغومين، ويخلدون فيها. والطاعة مكانهم "في جهنم وبئس المهاد". والمجرمون لهم جهنم لا يموتون فيها ولا يحيون، أما المكذبون بالقرآن فلهم جهنم مهادا. ومن خفت موازينه فقد خسر نفسه وهو خالد في جهنم. أما الضالون فيتم حشرهم في جهنم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما. وكلما خبت النار زادهم سعيرا.. ومن يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فلهم عذاب أليم: {يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ} (التوبة 35).



أما اللذين كفروا فلهم جهنم يُحشرون فيها ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، فهي مثوالمهم ونزلهم: لهم جهنم حصيرا، لأن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله. فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلَّبون وإلى جهنم يحشرون لتحيطهم.

والذين كفروا وظلموا لا يغفر الله لهم ولا يهديهم طريقا إلا طريق جهنم، خالدين فيها أبدا، وسوف تعرض لهم جهنم عرضا حقيقيا (الكهف 100). وعندما تفتح لهم أبوابها ويسألهم خزنتها {أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا؟} قالوا بلى.. وحقت كلمة العذاب على الكافرين. (الزمر 71). أما القاسطون الجائرون الغاوون فكانوا لجهنم حطبا، أي قاعا ووقودا. ومن يعبدون من دون الله فهم حصب جهنم أي حطبها الذي توقد به. ومن يقول إنه إله فهو ظالم ومصيره إلى جهنم. والمكذبون بالقرآن لهم جهنم مهادا ومن فوقهم غواشي جزاء للظالمين. ومن يجعل مع الله إلهها آخر يُلقى في جهنم ملوما مدحورا أي مدفوعا بعنف.

وأما كل جبار عنيد فمن ورائه جهنم ويُسقي من ماء صديد، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ. ولمن اتبع الشيطان فيخرج منها، من الدنيا، مذؤوما مدحورا، مأواه جهنم ولا يجد عنها خلاصا..

وبعد ان استعرضنا مختلف أنواع الإجرام والتقصير، ومختلف صور المصير في جهنم، لا بد من العودة إلى البداية، بداية ذلك اليوم الذي يتم فيه العرض على النار ويحصد كلا منا نصيبه منها. فنطالع في سورة "الفجر" {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ} يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23)}. أي أنه في يوم القيامة، وبعد دك الأرض وانتقال من عليها ومن سبقوهم، يلوح ربنا بجلاله، ويتم إحضار جهنم.

ومن الواضح هنا ان المجال مختلف تماما من حيث المادة وإمكانية الحركة التي يمكنها نقل أو استحضار جهنم من مكانها إلى حيث توجد المخلوقات من إنس وجن بعد انسلاخها من أجسامها المادية الصلبة أو شبه الصلبة. فالموقف ب كله يدور في العالم الأثيري الرهيف والذي تتم فيه الحركة بالإرادة والقانون الإلهي "كن فيكون". وعند استحضار جهنم، يومئذ يتذكر الإنسان وهو يتابع شريط حياته على الأرض، لكن بما ستنتفعه الذكرى، فالיום يوم الحساب..

وتنقلنا الآية التالية إلى عالم الغيب الذي به الحياة الحقيقية، الممتدة بمراحلها المختلفة، إذ يقول ذلك الإنسان المصدوم بعد أن أدرك عمله الذي مضى وموقعه في هذا المكان الجديد: {يا ليتني قدمت لحياتي}.. فهذه هي

الحيوان، الحياة الحقيقية التي سيعيش فيها ليواصل رقيه وتقدمه. ففي ذلك اليوم لا يُعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد. وعلى الرغم من رهبة الموقف وهيبته، ينبثق الأمل ويشع نورا مع قول ربنا سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّاتِي (30)}. فالآخرة هي دار القرار التي تتواصل فيها الحياة بأسلوب وفي مجال مختلفان تماما.

وتبقى آيتان في سورة "الزمر" (15 و16) بحاجة الى مزيد من البحث مع الآيات الأخرى، وهي تستوقف الانتباه لما فيها من معنى لافت للنظر: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (15) لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۗ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادٌ فَاذْفُقُونَ (16)}. فعبارة "ذلك يخوف الله به عباده" تستوقف الانتباه فعلا خاصة إذا أضفنا إليها آية تحمل تقريبا نفس المعنى في سورة "طه" (133): {وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا}.}

فهل كل ما ورد من آيات عن النار وعن جهنم والعذاب كان لمجرد التخويف والوعيد والردع الشديد الوضوح؟ حتى وان كان ذلك لمصلحتنا في الحياة الدنيا وللعمل على استقامتها، حيث نعرف معنى الحرائق والنيران المشتعلة التي تندلع بأي حادث؟.. يا لها من عبارات واضحة تستوجب التفكير والتأمل لنذكر منها معان قد تكون غابت عنا.. وينبثق شعاع من الأمل، مجرد شعاع، فأقواله سبحانه وتعالى واضحة وهو يقول لنا: {لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ} ؛ و {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} ؛ و {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}..

## الجنة

للجنة عدة أسماء في القرآن، منها جنات عدن ؛ والغرفة، وهي السماء السابعة ؛ والفردوس ؛ وجنة الخلد ؛ وجنة المأوى، وهي عند سدرة المنتهى ؛ وجنة النعيم ؛ ودار المقامة ؛ ودار السلام ؛ وجنة الآخرة. وكلمة "الدار" تعني المكان الأهل بالسكان. ومن اللافت للنظر أن التفاصيل المتعلقة بالجنة في هذه الجزئية من الآيات تعكس ما سوف تكون عليه الحياة هناك، وتكمل ما ورد عنها من معطيات في جزئية "السماء والسموات" بالفصل الثاني. وأوضح ما يميزها تعددها وكأنها أنواع مختلفة ودرجات متعددة. لكن جميعها تقريبا {تجري من تحتها الأنهار}. وقد وردت كلمة "الجنة" أكثر من ثلاثين مرة في القرآن.

ومعرفتنا بالجنة مرتبطة إلى حد كبير بقصة آدم وزوجته وطردهما من الجنة بسبب غواية إبليس لهما واستجابتهما له وعدم التزامهما بتحذيرات المولى عز وجل. إذ بدأ الله بقول: {وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا} (طه 115). ثم أوضح سبحانه ما كان قد قاله لآدم: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى} (طه 118 و119). لكن الشيطان وسوس لآدم فعصى ربه فغوى.. لذلك صدر القرار صارما: {قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} (123) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} (طه). والمثني هنا، في فعل الأمر "اهبطا" لآدم وزوجته، اما عبارة "جميعا" فهي لثلاثتهم اي آدم وزوجته وإبليس.

وبعد مرور تجربة الحياة الدنيا وانتقال آدم إلى العالم الآخر، نراه يسأل لربه: {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} (طه 125). ويأتيه الرد حاسما من ربه: {قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (126) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى} (طه).

وعودة إلى قرار الطرد من الجنة لنرى أنه يواكبه كعقاب، وأن يكونوا أصلا أعداء لبعضهم البعض في الدنيا، وأنه يتعين عليهم خلال هذه المرحلة اتباع كل ما أتاهم من تعاليم على أيدي الأنبياء والرسل، ليتقدموا ويتطوروا كمخلوقات ويتموا تجربة تجسدهم على الأرض بنجاح. ويتكرر نفس التحذير للأجيال التالية، لبني آدم جميعا: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرََاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} (الأعراف 27).

وتؤكد عبارة "أنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم" حقيقة اختلاف التكوين والذنبات لكل ما خلق الله. وإن هناك مجالات محجوبة عن الإنسان، لكن كونها محجوبة فذلك لا يعنى أنها غير موجودة. وان الشياطين يمكنها رؤيتنا ونحن لا نستطيع ذلك لاختلاف مادة تكوين كلاً منا.

ومن الأوصاف العامة للجنة أنها عرض السموات والأرض، أعدت للمتقين، تجري من تحتها الأنهار، وان أكلها دائم وكذلك ظلها. وبها عيون وفاكهة، وأنها طبقات ودرجات وبها مساكن طيبة. والمقيمون فيها يسبحون لله، وتحيتهم سلام، وآخر دعواهم "الحمد لله". إذ لهم فيها ما يشاؤون. وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى} (طه 75).

والجنة العالية لا تسمع فيها لغواً، وفيها عين جارية وسرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة، أي أبسطة ملونة. وهو ما يشير إلى إطار معيشة على نسق منتظم ومستقر، يمارسون فيها حياتهم. كما يكشف هذا الوصف أنه يتعلق بحياة معيشية على مستوى كريم، وأن الأبرار يشربون من كأس

كان مزاجها كافورا، كما ان هناك { عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا } (الإنسان 6). أي إن هذه العيون على مستوى أرض الجنة العالية، وهي تختلف عن الجنات الأخرى التي تجري من تحتها الأنهار. وعبرة "يفجرونها تفجيرا" مع استخدام المفعول المطلق، أي تفجيرا حقيقيا، تشير إلى عمل عباد الله، أهل الجنة، ويوضح لنا إن البقاء في الجنة ليس مجرد استكانة وخمول على أرائك مكسية بالحريز، وإنما هناك أيضا أعمالا يقوم بها أهل الجنة وهم يمارسون حياتهم الجديدة. وما أكثر ما تناول علماء الغرب، الذين درسوا ويواصلون دراسة عالم الروح، التحدث بإسهاب عن هذه الجزئية، وان الأرواح تمارس حياتها من عمل وتعليم وتعلم، في صفاء والتزام بعد ان نزع الله ما في صدورهم من غل.

ونطالع مزيدا من التفاصيل فيما يتعلق بأصحاب الجنة الذين هم فيها خالدون: فمنهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، والذين نُزِعَ ما في صدورهم من غلٍ، والذين سَعَدُوا وَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وكل هؤلاء يومئذٍ خيرٌ مستقرا وأحسن مقيلا. فهم اليوم في شغل فاكهون، يتعجبون وينعمون، بعد أن تقبل الله منهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم. فكل من قام بذلك في حياته فهو، بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، في عيشة راضية وجنة عالية: { قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) } (الحاقة).

أما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى. وهي كما رأينا عند سدرة المنتهى. فالذين اتقوا ربهم { لَهُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّبْنِيٌّ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لِمُخْلِفي اللَّهِ الْمِيعَادَ } (الزمر 20). وتوضح عبارة "غرف مبنية" ان هناك طبقات ومبان سكنية كالمدن، وكأنها جنات فوقها جنات مشيدة بالحُبُك، مثل كل ما هو في السماء ولا نراه بأعيننا.

وكان أهم ما على الإنسان أن يفعله في هذه الدنيا هو أن يقوم بتقويم وتربية نفسه اللوامة ونهيتها عن الهوى، وعدم الانسياق في مآهات الدنيا ومغرياتها، والالتزام بتعاليم الله التي حددها بوضوح في الدستورين الدنيوي والعبادي، وعدم الحياء عنهما. إذ حينما خلقها الله كوعاء للروح، لتتمكن من التعامل مع الجسم وتأدية ما عليها من مهام كلفها بها المولى عز وجل، ألهمها في نفس اللحظة "فجورها" و"تقواها" وترك لها مهمة ان تمارس وتخوض معركة الاختيار. وهذه هي معركة الخير والشر التي يمر بها الإنسان طوال حياته وعليه أن يختار الصواب ليجتاز اختبار ما يبئليه به الله من شر ومن خير، فكلهما كما أوضح سبحانه بلاء من رب العالمين. فالبلاء، بوجهيه، هو منحة ومحنة اختبار. لذلك يقول المولى { وَتَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً }.

ونعلم جميعا ان كل نفس ذائقة الموت، وأنا سنوقى أجورنا يوم القيامة. وذلك لا يعنى أننا لن نرى شريط أعمالنا ينساب أمامنا عند انتقالنا. { فَمَنْ رُحِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ

الْعُرُورِ} (آل عمران 185). وتتابع تلخيصا في سورة "الإنسان" لهؤلاء الأشخاص الذين كانوا {وَيُطْعَمُونَ  
الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (8) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (9) إِنَّا  
نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (10) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (11) وَجَزَاهُمْ  
بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (12) مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۗ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا (13) وَذَانِبَةً  
عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَفْئِدَتُهُمْ تَذَلُّبًا (14) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِانِيَّةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا (15) قَوَارِيرَ  
مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا (16) وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18)  
﴿وَإِطْوَفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُّحَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا (19) وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا  
كَبِيرًا (20) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۗ وَخُلُوعًا لِأَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (21) إِنَّ  
هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا (22)﴾ (الإنسان).

وهو ما يوضح لنا ما ستكون عليه الحياة واستمرارها، بعد الانتقال من الحياة الدنيا، لتعيش النفس والروح  
فيها تجربة حياة في دورة أخرى، في مجال أكثر جمالا وأكثر رقيًا، يختلف تماما عما كانا فيه. وندرك ذلك  
بعد ان أوضح الله سبحانه قائلا: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّن غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (47) لَا يَمَسُّهُمْ  
فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} (الحجر 48). ومن الواضح أن الغل والشعور بالحنق والغيط من مشاعر  
السوء التي تعرقل تقدم الإنسان. وقد أشار الله مرة أخرى في سورة "الأعراف" (42) إلى نزع ذلك الغل من  
الصدر حتى تتمكن الروح من مواصلة تقدمها.

ومن اللافت للنظر أنه حتى الآيات المتعلقة بالجنة لم يخل بعضها من سيرة الكافرين وذكر أكبر ما اقترفوه  
من كفر إذ {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۗ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي  
وَرَبَّكُمْ ۗ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} (المائدة 72). غير  
ان الكفر والتكذيب آيات الله يبدو متأصلا في خصالهم وفي اختياراتهم. لذلك قال الله {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا  
وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا نَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۗ وَكَذَلِكَ نَجْزِي  
الْمُجْرِمِينَ} (الأعراف 40).

بل تزايد كفرهم بالله {وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن  
كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (البقرة 111). ومن الواضح والثابت ان هؤلاء المستكبرين يدعون إلى النار والله يدعو إلى  
الجنة والمغفرة بإذنه، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون.. يتذكرون أنهم خلقوا أساسا ليكونوا خلفاء الله عز  
وجل، لعمارة الأرض وإعمارها وتنميتها في كافة المجالات. فما أكثر ما أوصانا به رب العزة مشيرا الى  
أهمية العلم والدراسة والتأمل في أنفسنا وفي الطبيعة، نتأمل خلق الله الذي لا حدود ولا نهاية له..

ليتنا نتذكر ونعي كل هذه الدروس والحكم.. وأن نلتزم.

ولو تأملنا الآيات التي وردت فيها عبارة "يتذكرون"، ولا أقول حتى الآيات المكتوبة بتاء مضغمة مع حرف الذال، لأدركنا كم نحن مقصرون في حق الله سبحانه وتعالى:

\* {وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (البقرة 221) ؛

\* {وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (إبراهيم 25) ؛

\* {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (القصص 43) ؛

\* {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (القصص 46) ؛

\* {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (القصص 51) ؛

\* {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (الزمر 27) ؛

\* {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَا بِهِ لِسَانَكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (الدخان 58) ؛

بل لو لاحظنا تكرار عبارة "لعلهم يتذكرون" في الآيات السبعة، وأدركنا أن "لعل" كلمة شك عند بعض اللغويين وأنها كلمة رجاء وأمل وتشكك، كما تعني عسى، - ومهما اختلفت درجات معناها فلا يمكن استبعاد معنى الأمل والرجاء رغم اليأس.. وحينما يقول الله أنه يوضح آياته للناس، والآيات تعني جزء من نص القرآن كما تعني المعجزات، ويضرب لنا الأمثال، وأنزل الكتاب لموسى بعد أن أهلك القرون الأولى، وأنزله على سيدنا محمد لينذر به قوما لم يأتهم نذير من قبله، وأوصل لهم القول، - أي أوصله لنا فنحن من قوم سيدنا محمد وأتباعه عليه الصلاة والسلام، وضرب لنا فيه مثلا من كل شيء، بل ويسره بلساننا، باللغة العربية على أمل ورجاء أن نتذكر محتوى الرسالة! ويا لها من رسالة، ويا له من تقصير لا يوصف..

ليتنا نعي معنى الرسالة التي وجهها لنا المولى عز وجل، ونبدأ بقراءة القرآن لفهم معنى الكلمات وليس لمجرد المرور عليها بأعيننا وكأننا عمى صم بكم.. ليتنا نقرأ لفهم معنى الكلمات والربط بينها رغم المسافات التي قد تكون بينها، ونتعلم كيفية الربط بينها لنخرج بفحوى كل رسالة من الرسائل التي يذخر بها القرآن

الكريم، وما أكثر ما لم نتبينه بعد من رسائل ومعاني لنتذكرها ونعمل بها في حياتنا الدنيا قبل أن نلقاه في عالم الغيب.

## الخلاصة

مما تقدم في الفصول الثلاثة يمكن القول بوضوح أن القرآن الكريم قائم على مجال الغيب بعامة وعلى المجال الروحي بمفهومه العلمي الحديث بمختلف مكوناته. بل لو تأملنا كيفية تنزيل الوحي على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ومختلف وسائل ومجالات هذا الوحي، لقلنا بكل ثقة أنه كان أكبر وسيط روحي عرفته الدنيا في زمانه بل وظل متفردا في هذه المكانة حتى يومنا هذا. فلم تعرف البشرية وسيطا تحمّل ما تحمله سيدنا محمد لتلقي هذه الرسالة أو لتبليغها وقيادة المجتمع لاستيعابها بمثل هذه المدة.

فمما نعلمه من المراجع التاريخية أن الوحي بالقرآن امتد ثلاثة وعشرون عاما، لتوحي إليه رسالة تقود البشرية إلى صوابها وإلى السراط المستقيم لعبادة الله الواحد الأحد وعدم الشرك به. وهي مدة لم نسمع أن حظي بها وسيط روحي في العالم حتى في العصور الحديثة. فعادة ما تكون امكانية الوساطة في مجال واحد كالجلاء البصري، والجلاء السمعي، والطرح الروحي، أو القيام بظواهر تفوق القدرة البشرية العادية ولفترة متفاوتة الطول. أما ان تجتمع فيه مختلف مجالات الوساطة الروحية وبمثل هذه المدة، وهو يمارس مهامه الدعوية، فذلك دليل على عظمة روحه ورفي نفسه بحيث حظي عند الله بمثل هذه المكانة.

وقد اشتهر النبي بالرؤيا الصادقة. فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح في تحقيقها. وكان المَلَك يلقي بالرسالة في روعه وقلبه دون أن يراه، وهو ما يندرج في مجال الجلاء السمعي ؛ وكان يتمثل له المَلَك أحيانا أخرى فيخاطبه حتى يعي ما يقوله له، وهو ما يندرج في مجال الجلاء البصري ؛ وكان يأتيه أحيانا في مثل صلصلة الجرس حين يكون وحيدا لينتبه لمجيئ المَلَك، وهي من المقدمات المعروفة. بل لقد رأى المَلَك في صورته التي خُلِق عليها فيوحي اليه ما شاء الله أن يوحيه، وقد وقع له ذلك مرتان كما في سورة "النجم" فقد { عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (7) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (8) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (9) فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى (10) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى (11) أَفَتُحَارِبُوهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (14) } (آيات).

فكل ما رآه سيدنا محمد وكل ما أوحاه الله تعالى اليه في الإسراء والمعراج، وهو ينتقل من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى، أو فوق السماوات، من فرض عدد الصلوات ورؤية أرواح الأنبياء والتحدث إليهم، فهو ما



يندرج علميا في مجال الطرح الروحي والجلاء البصري. وكلام الله له منه اليه وبلا واسطة مَلَك كما كَلَّمَ موسى عليه السلام، كل ذلك يضع سيدنا محمد صلوات الله عليه في أعلى مستوى من مستويات الوساطة الروحية.

ولو تأملنا القرآن، وهو صلب الرسالة التي تلقاها وقد أحييت اليه بمختلف أنواع الوحي ومجالاته، للاحظنا أن الله قد أطلق على القرآن عشرة أسماء من أسمائه الحسنى: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ}، {يس، وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ}، {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ}، {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا}، {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}، {ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ}، {إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ}، {وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ}، {قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ}، فهو كتاب متفرد، ليس كمثله شيء. ولو تأملنا هذه الأسماء الحسنى لرأينا أنها: العزيز، الحكيم، العظيم، النور، المبين، المهيمن، المجيد، الكريم، الحق، ليس كمثله شيء. لذلك قال ربي عز وجل وهو يصف القرآن: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} (الكهف 109)، والآية المكملة لها: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (لقمان 27). والعزيز تعني الذي لا يقهر، والحكيم تعني الحاكم لكم وعليكم، وهما من أسماء الله الحسنى ومن أسماء القرآن. وكان القرآن يحمل من صفات الله وفكره سبحانه وتعالى.

ولو استعرضنا بعض الوقائع التي نطالعتها في القرآن وتدخل في مجال الغيب ومجال العلوم الروحية لهالنا عددها وتنوعها. ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: إرسال المولى عز و جل ريحا على جنود الأعداء وجنودا سماوية لم يلاحظها أحد لمساعدة المسلمين (الأحزاب 9) ؛ عصى موسى تتحول الى أفعى تلقف سحر فريق فرعون (الشعراء 45) ؛ الخضر وكل ما قام به من أفعال تبدو شكلا وكأنها شريرة وبلا رحمة، في حين أنها ملهمة من الله وتتم بناء على معرفة مسبقة أو إلهام في حينه لإنقاذ من تمت في حقهم هذه الوقائع ولصالحهم (الكهف) ؛ جنود المسلمين وهم يرون الأعداء في بعض المعارك أقل عددا، وحصول العكس لدى جنود الأعداء فيرون المسلمين أكبر عددا (آل عمران 13) ؛ عرش ملكة سبأ الذي نقله من لديه علم من الكتاب في أقل من لمح البصر (النمل 39) ؛ وهناك، رغم استحالتها عمليا، إمكانية النفاذ من أقطار السماوات والأرض بسلطان من الله (الرحمن 33)، وهو ما حدث في معجزة الإسراء والمعراج ؛ جانٌّ وناسٌ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم عيون يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها (الأعراف 179)، أي أنهم محرومون مجردون من نعمة الملكات الروحية. فالقلب المغلق لا يسمع ولا يفقه شيئا.

وهناك على سبيل المثال أيضا واقعة الطير الذي تم تقطيعه أربعة أجزاء وتم وضع كل جزء على جبل ودعاهم سيدنا إبراهيم فأتيه سعييا بإذن الله (البقرة 260). وما أكثر ما يتضمنه القرآن من آيات هي جزء لا يتجزأ من علوم الظواهر الروحية التي تسمح لمن وهبها الله له، أو بمعنى أدق لمن وصل من الرقي والتقدم النفسي والروحي ليكون جديرا بها والسماح له بالقيام بهذه المعجزات.

ومن اللافت للنظر أن نطالع عبارتا "علم الغيب" و "علم الكتاب" وقد وردت كلا منهما مرة واحدة بهذا الوضوح والتحديد. وإن شئنا الدقة فقد وردت عبارة "علم الكتاب" (الرعد 43)، و"علم من الكتاب" (النحل 40) أي جزء من ذلك العلم، و"علم الغيب" (النجم 35). وبعض الآيات تحدثنا عن ان هناك "من أوتوا العلم"، و "من أوتوا العلم والإيمان"، ومن أوتي "حكما وعلما"، و"الراسخون في العلم". وهو ما يوضح لنا درجات العلم والعلماء. وما أكثر الآيات التي تحدثنا عن الدرجات سواء في الدنيا أو في الآخرة. إلا أنهم مهما أوتوا من العلم لا يحيطون بشيء إلا بما شاء الله. الأمر الذي يوضح لنا وجود علم محدد لكل منهما، علم الغيب وعلم الكتاب، موزعا أو متداخلا في نص القرآن ولا يدرك منهما إلا أولوا العلم، الذين يضعهم رب العزة في إحدى الآيات بعد مصاف الملائكة لمستواهم العلمي والروحي (آل عمران 18).

وهناك مثال آخر لعله أكثر وضوحا نمر عليه، ربما دون أن نلاحظ مغزاه، وهو في سورة "الكهف" في مقطع الرجلان، وكان لأحدهما جنتين أتت أكلهما، فتعالى على صاحبه باقتراء. فقال له صاحبه وهو يحاوره: {أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا} (آية 37). والتساؤل هنا هو: كيف عرف هذا الصاحب كيفية خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم سواه رجلا إن لم يكن من الذين يقرأون القرآن ويتعلمون وينذكرون؟ فأحد الرجلين ميسور الحال والثراء ويطمع في المزيد وفي دوام ثرائه؛ والثاني أقل منه مالا وولدا، لا يكثرث بالدنيا لكنه يؤمن بالله ويعيش بكلماته سبحانه، ولا يشرك بربه أحدا. لقد أثر العلم والمعرفة وتطبيقهما في حياته اليومية على حب المال والتباهي به. بل لقد تنبأ بما سيحدث للحديقتين وقد حدث فعلا، وكأنه يطلع على الغيب أو توحى إليه بمعلومة، وهو ما ندركه في نهاية هذا المقطع الذي يمتد سبعة آيات. الأمر الذي يمثل لنا نموذجا واقعا لمن يهتمون بالحياة الدنيا، ومن يهتمون بالعلم، وهو هنا القرآن وملحه الديني والعلمي والغيب.

ويعد الحلم والرؤيا من مجالات الغيب، ولو تأملنا ما ورد بالقرآن من آيات عنها والتمييز بين الحلم والرؤيا وعبارة "أضغاث أحلام"، التي لم يكتشفها الغرب إلا مع بدايات علم النفس حديثا، لدشنا من دقة الوصف ولتعدد التعبير عنه بصورة لا يمكن إغفالها. وأبدأ بالرسول عليه الصلاة والسلام ومكانته المتفردة عند الله، فهو {ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ} (التكوير 20)، و {لَقَدْ رَأَى مِنْ ءِآيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} (النجم 18). وهذه

الآية في حد ذاتها شهادة من الله على وجود مجال الغيب في القرآن والذي فرض علينا الإيمان به يقينا في مطلع سورة "البقرة" وفي العديد من الآيات ؛ كما أنها شهادة من الله سبحانه وتعالى على مستوى الرقي الروحي لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بحيث أمكنه رؤية بعضا من آيات ربه الكبرى.

والحديث في القرآن عن الدرجات يتناول المجالين، مجال الحياة الدنيا ومجال الآخرة، وهو الأكثر إشارة أو ورودا في القرآن. فالله هو الذي جعلنا خلائف الأرض ورفع بعضنا فوق بعض درجات لئبلونا فيما أتانا (الأنعام 165). والدرجات تعني أساسا المستوى الروحي والنفسي. وقد قسّم بيننا معيشتنا في الحياة الدنيا ورفع بعضنا فوق بعض درجات ليرى تصرفاتنا واختياراتنا، وليتخذ بعضنا بعضا سخرية في معترك الحياة اليومية، متناسين أساسيات ما خلّقنا من أجله.

ومن استهان في الدنيا بما أنزل الله ويعتبره من أساطير الأولين فهؤلاء هم الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس. وقد كانوا خاسرين (الأحقاف 18). ولقد فضل الله المجاهدون بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة. والدرجة هنا هي ما يمكن أن نطلق عليه اول عملية فرز بين البشر، من حيث التصرفات، ثم تؤخذ الأعمال لتحديد معنى ومقدار هذه الدرجة. إذ ان من يأت ربه مجرما له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى، كما سبق ورأينا. ومن يؤته مؤمنا قد عمل الصالحات فهو لئلك لهم الدرجات العلى: جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. وذلك جزاء من تزكى.

كما يرفع الله الذين آمنوا والذين أتوا العلم درجات (المجادلة 11). وليس بغريب أن يشير الله الى المساواة بين الإيمان والعلم ويرفع أصحابهما درجات. فقد بدأ تنزيل القرآن وبدأت الرسالة بفعل أمر واضح: اقرأ.. اقرأ باسم ربك الذي علم بالقلم.. بل حتى فيما يتعلق بالرسول فقد فضل الله بعضهم على بعض ومنهم من كَلَّمَ الله ورفع بعضهم درجات (البقرة 253). والمقصود بالدرجات فيما يتعلق بالرسول والعلماء هو المستوى الروحي والرقي النفسي والعلمي. والمؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم، {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} (الأنعام 132).

ولو تأملنا القرآن إجمالا لوجدنا ان الله قد ضمنه دستورين: أحدهما للحياة الدنيا والثاني للحياة الحقيقية، الحياة الروحية والعبادية. دستور الحياة الدنيا يوجهنا الى ما يجب عمله وما يجب ان نتجنبه، فقد اشتمل على مختلف المجالات الحياتية التي تحتوي ضمنا على كيفية ترويض النفس فيما نقوم به من اختيارات في المعاملات الإنسانية بأكملها. وهو ما يقوم عليه التشريع الإسلامي.

أما الدستور الأخرى فيتضمن التنظيم العبادي من صلوات مفروضة ونوافل وتهجد وصوم وإنفاق وتكافل ومعاملات ترقى بالنفس اللوامة الى مستوى العطاء بكل رضا وسعادة. وقد تضمن هذا الدستور العديد من الآيات لشرح كيفية التسبيح والتقرب الى الله. وهناك أكثر من سبعين دعاء يمكن الابتهاال بها مدمجة في نسيج الآيات. كما توجد آيات توضح كيفية التسبيح. بل أنها تكشف لنا أهمية التسبيح وكيف أنه بمثابة ربط المخلوقات بالخالق: {نُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} (الإسراء 44). وكان التسبيح هو نبض الحياة العبادية الروحية للإنسان ولكل كائن حي.

وإن تأملنا هذه المجموعة الخاصة بالتسبيح تحديدا لرأينا أنها تنقسم الى مجموعتين، مجموعة عامة، وهي الأقل عددا، وذلك لأن الأفعال فيها بصيغة الجمع أي أنها عامة: {وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} (الأحزاب 42)، {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ} (الروم 17). ومجموعة أخرى موجهة للرسول تحديدا، وكأنها توضح لنا المستوى الأعلى لكيفية الحفاظ على حالة نقاء النفس والسكينة، والحفاظ على حالة الوساطة الروحية لتلقي الوحي بالرسالة التي كُلف بها. لأن الأفعال فيها بصيغة المفرد وموجهة للرسول عليه الصلاة والسلام في نفس الآية أو فيما سبقها من آية أو آيات مرتبطة بنفس الموضوع: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} (غافر 55).

واللافت للنظر ان نطالع أكثر من آية تحت الرسول صلوات الله عليه على الصبر وعدم الاكتراث بما يقوله المشركون: {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى} (طه 130) ؛ {فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا} (ق 39) ؛ {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ} (الطور 48). ومعنى القيام العزم، كما يجيء بمعنى الوقوف والثبات، وأقام الشيء: أدامه، ومن قوله تعالى: {ويقيمون الصلاة}.

وتتنوع مواعيد هذا التسبيح الموجه لنبيا الأمين: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأُدْبَارَ السُّجُودِ} (ق 40)، {وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} (الطور 49). أما التوجيه المتكرر ثلاث مرات فنطالعه في الآية التالية: { فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ } (الواقعة 74)، وفي (الواقعة 96)، وفي (الحاقة 52). وتكرر نفس الآية مع اختلاف اسم ربنا عز وجل: {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} (الأعلى 1). كما يحثه سبحانه وتعالى محمدا {وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} (الإنسان 25)، {وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا} (الإنسان 26). وتأتي آخر آية متعلقة بالتسبيح وموجهة للرسول في سورة "النصر" (3): { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا }.

ولو حاولنا تلخيص هذه التوجيهات لوجدنا أن هناك التسبيح، والذكر. والتسبيح هو الأكثر وروداً، أما الذكر باسم الله فقد ورد مرة واحدة. فلدينا: التسبيح بحمد الله قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وأثناء الليل وأطراف النهار. التسبيح بحمد ربنا عند القيام، ومن الليل وأدبار السجود وأدبار النجوم. التسبيح باسم الله الأعظم - وقد تكررت الآية ثلاث مرات، والتسبيح باسم الله الأعلى ليلاً طويلاً. وبخلاف التسبيح فهناك ذكر اسم الله بكرة وأصيلاً. وإن زدنا في الاختصار لوجدنا: التسبيح بحمد الله، التسبيح باسم الله الأعظم، التسبيح باسم الله الأعلى، وذكر اسم الله. وكأن نبض القلب يتحول الى ذكر وتسبيح..

وليس من المبالغ فيه إضافة ان هذا الانضباط هو ما يتبعه المهتمون بالعلوم الروحية من تدريبات للنفس على السكينة والهدوء بتكرار جلسات التأمل في مواعيد ثابتة يومياً، مع ترديد كلمة ما أو التركيز على فكرة معينة أو صورة، وذلك لفترات محددة يومياً. ولقد أصبح لكل مجال من المجالات تدريباته الخاصة. وأصبح للمجال الغيبي أو الروحي مدارس متعددة، وأقيمت له أقسام علمية في بعض الجامعات.

لقد أهملنا ملمحاً أهدانا الله إياه في القرآن، منذ القرن السابع، ولم يلتفت إليه إلا قلة نادرة من علماء المسلمين على مر التاريخ، بينما بدأ الغرب ينتبه لذلك المجال في القرن الثامن عشر، وعمل على تنميته ووصل فيه من التجارب والمعارف الى درجة جد عالية. وهو الأمر الثابت في العديد من الكتب والمراجع التاريخية والاجتماعية التي باتت تملأ المكتبات في الغرب.. ويقول أحد كبار الوسطاء الروحيين الروس، المتخصصين في مجال الجلاء البصري: "بالتدريب والمواظبة لقد تمكنا من التوصل الى رؤية مختلف الأحداث قبل وقوعها بكل وضوح، إلا أننا فشلنا تماماً في معرفة موعد وقوعها!!" ولا غرابة في ذلك فالزمن، مثله مثل الساعة، بيد الله وحده سبحانه وتعالى.

فالغيب، بكل أبعاده الإيمانية والعبادية والروحية، مجال أوصانا به المولى عز وجل، وأهملناه في غفلة أو عن عمد. لقد منحنا خارطة الطريق، فليتنا نهتم بالعودة اليه.. العودة الى التقرب من الله سبحانه وتعالى.

## كشف المراجع

المراجع الرئيسية:

القرآن الكريم

لسان العرب: للإمام العلامة ابن منظور، دار الحديث، 9 مجلدات، القاهرة، 2003

المراجع لعامة:

إبن القيم الجوزية (الإمام المجدد): الروح، تحقيق كمال على الجمل، مكتبة الإيمان، المنصورة، ب.ت.  
أبو بكر بن باجة الأندلسي: كتاب النفس، حققه د. محمد المعصومي،

مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق، 1960

أحمد الصباحي عوض الله: في عالم الروحانيات، مكتبة مدبولي، القاهرة، ب.ت.

أحمد عمر هاشم (دكتور): النفس في القرآن، دار الفيصل للتأليف والترجمة والنشر، ب.ت.

أرسطوطاليس: كتاب النفس، ترجمة أحمد فؤاد الإهواني، دار إحياء الكتب العربية، 1949

تقي الدين بن تيمية: رسالة في العقل والروح، دار الهجرة، دمشق، 1988

طنطاوي جوهرى (الشيخ): الروح، دار صادق للنشر، الإسكندرية، 2011

فخر الدين الرازي (الإمام): النفس والروح وشرح قواهما، تحقيق د. محمد المعصومي،

معهد الأبحاث الإسلامية، إسلام آباد، ب.ت.

كالكتشوف، الحياة الروحية في بابل، ترجمة عدنان حمودي، منشورات المهدي، سوريا، 1995

عبد الرزاق نوفل: من أسرار الروح، أخبار اليوم، القاهرة، ب.ت.

عبد العزيز جادو: الروح والخلود بين العلم والفلسفة، دار المعارف 1970

ماكس شيلر: مفهوم الروح، ترجمة د. ظريف يسين، دار النهضة العربية، 1997

محمد زكي إبراهيم (الإمام): حياة الأرواح بعد الموت، الطبعة الثالثة 2002

محمد سيد أحمد المسير (دكتور): الروح في دراسات المتكلمين والفلاسفة،

دار المعارف، 1988، الطبعة الثانية

محمد مصطفى حلمي (دكتور): الحياة الروحية في الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985

محمد محمد حسين: الروحية الحديثة، حقيقتها وأهدافها، منشأة المعارف، إسكندرية، 1960

نبيه عبد الرحمن عثمان (دكتور): الإنسان الروح والعقل والنفس، رابطة العالم الإسلامي، 1987

ندرة اليازجي: دراسات في فلسفة المادة والارواح، دار الغربال، دمشق، 1999

هشام كمال عبد الحميد: الهندسة الوراثية في القرآن وأسرار الخلق والروح والبعث،

مركز الحضارة العربية، مصر، 2002

هنري برغسون: الطاقة الروحية، ترجمة د. على مقلد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،

بيروت، 1991

هيغل: فينومينولوجيا الروح، ترجمة د. ناجي العونلي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2006

يو. م. إيفانوف: الإنسان والروح، حياة الإنسان في الجسد المادي وفي عالم الفلك،

دار الطباعة الجديدة، سوريا، 1995

## الفهرس

4	المقدمة
7	الفصل الأول: الغيب
10	الغيب
13	عالم الغيب
23	الوحيّ
27	الرجوع الى الله
30	البعث
33	الفصل الثاني: الخلق
34	الخلق
38	الحياه
42	الموت
47	الجن والشيطان
51	الروح والنفس
59	القلب والعقل
64	السماء والسموات
73	الفصل الثالث: الآخرة
74	الآخرة
77	يوم القيامة
86	النفخ في الصور
94	يوم الحشر
97	يوم الحساب



100	النار
104	جهنم
107	الجنة:
<b>112</b>	<b>الخاتمة</b>